الفصل العاشر

سكان المدينة (*)

ان الدراية بالتحضر الغربى تمثل اساسا قاصرا كل القصور لفهم التنوع الكامل للمجتمعات الحضرية فى البلاد النامية . ويصدق هذا بوجه خاص فيما يتعلق بخصائص سكان المدن فى تلك البلاد . فمجرد الملاحظة العابرة تدلنا مثلا على أن أوجه الشبه بين التحضر الغربى والتحضر فى تلك البلاد ضئيلة للغاية ، اذ تبدو الفروق الشاسعة بين خصائص المهاجرين الجدد الى المدن السريعة النمو واولئك الذين يعيشون فيها منذ امد بعيد ، وذلك من حيث المكانة ومستويات الدخل والأصول الثقافية ايضا . فبعض المهاجرين يأتى من « الأدغال » ، بينما يتمتع عدد اقل بكثير بخلفية مغايرة كالتعليم الأجنبى مثلا .

ولعله يفيدنا فى هذا السبيل ان نلقى بنظرة خاطفة على انواع الناس الذين يذرعون الشوارع سيرا على اقدامهم واولئك الذين يعيشون داخل بيوت المناطق الحضرية فى البلاد النامية . واذا نظرنا الى الأطفال وجدنا الكثيرين منهم مجرد هياكل عظمية ، حفاه الأقدام ، رثاث الثياب ، تعلوهم القذارة ، لا يلقون المحبة ممن حولهم أحيانا ، وكثيرا ما توكل اليهم مهمة رعاية أخوتهم الأصغر ، منهم بينما يكافح والداهم فى يأس ليشقوا لأنفسهم طريقا فى المجتمع الحضرى الجديد . وقد يكون هؤلاء الأطفال على درجة عالية من الامتثال . بينما يمكن ان نجد بعضهم من ناحية اخرى وقد القى به وسط مجتمع غريب عنه ليست له به الدراية الكافية ، نجده يصل فى الغالب الى نوع من المواقف اللااخلاقية من المجتمع لا يخشى سوى رجال الشرط

(*) هذا الفصل مترجم عن المصدر التالى :

Breese, G., Urbanization in Newly Developing countries, Prentice Hall, New Jersay, 1966.

الشرطة ، ولا يبدى اى نوع من الاستجابة لوالديه اللذين لاينتميان الى جيل آخر فحسب ، وانما نجد كذلك أن حظ الاباء من الخبرة الحضرية اقل من ابنائهم .

أو لنلق بنظرة على الشبان العزاب الذين يمثلون الاغلبية بين المهاجرين الى المدينة . فأواصرهم ممزقة مع المجتمع المحلى . ويبدو عليهم شحوب غير طبيعى من قلة النوم ، ومن فرط سوء الظروف التى يعيشون فيها . وشدة ارهاق العمل الذى يؤدونه وضآلة ما يتقاضونه من أجر . يذرعون الشوارع فى صمت ، يفعلون أى شىء للهروب من الأحياء التى يجب أن يقيموا فيها حيث يعيشون كسكان من الباطن فى مناطق شديدة التواضع . وتتراوح خبراتهم من القادم الجديد الساذج المندهش دائما الى ذلك الذى يشعر باحساس كاذب « بالزمن الخالى » ولم ينقض على وصوله سوى بضعه اشهر قليلة . وقد وصلوا الى المدينة من أماكن لا حصر لها بعد أن دفعوا أجرا زهيدا لرحلة تكسر الضلوع فوق احدى عربات نقل البضائع . وتراهم يسيرون ، ويسيرون ، ويسيرون بلا نهاية ، أو يجلسون القرفصاء ، فى احد الأركان يلوكون طعامهم اليومى الزهيد . تراهم يتدافعون تجاه « عربات الطعام التى Mammy Wagons (*) التى تملكها احدى السيدات الزنجيات » التى تصادفنا فى كل مكان فى غرب أفريقية ، أو ينعسون فى نوم متقطع فوق احدى العربات الكارو العائدة من سوق المدينة .

ولكن ماذا عن النساء ؟ بعضهن يكدح صعودا وهبوطا فوق سقالات المبانى ، سلسلة لا نهاية لهـا من البشر يحملون قصعات الأسمنت ، يحملن أطفالهن على ظهورهن ، أو يودعنهم فى ركن هادىء مع غيرهم من الأطفال . أو ربما تراهن يحملن الطعام الى أزواجهن ، أو يجمعن حزم عيدان الحطب لايقاد النار ، أويحملن سلالا بها روث البهائم لتجنيفها واستخدامها وقودا للنار . وأكثر ما يلفت النظر رشاقة حركتهن وهن يحملن تلك الأحمال الثقيلة فوق رؤوسهن . وفى مصر ترتدى النساء السواد ، وفى الهند السارى الملون ، بينما يرتدين فى

(*) تشبه عندنا العربات الموجودة على بعض النواصى او الميادين فى مختلف الاحياء وتبيع الكشرى او « سندويتشات » الفول والطعمية ، او « الكفتة » او الكبدة .. الخ.
(المترجم)

عرب افريقية انماطا مذهلة من التكوينات اللونية الفريدة . اما القلة المتقدمة فى السن فتراها — على العكس من ذلك — جالسة فى الشمس فى كسل ، تلوك افواههن بعض النباتات ، يتبادلن الابتسامات الخفيفة ، والأحاديث المتقطعة . وهن فى الواقع منبوذات ، جردن من سلطتهن بفعل الأساليب الحضرية الجديدة . وتنبئنا أجسامهن المتهدلة وعيونهن الغائرة لا بحالتهن الجسمية الراهنة فحسب ، وانما كذلك بتحلل روحهن المعنوية بسبب مكانتهن فى البيئة الحضرية الجديدة .

اما اذا كان المهاجرون قد وصلوا كأسرة مكتملة ، فان الأنماط الريفية الباقية تبدو عليهم واضحة كل الوضوح . فترى مثلا الزوجة تسير الخطوات القليلة المناسبة خلف زوجها وفى يدها طفلها يتعلق بثوبها ، فى حين أن طفلها الآخر المحمول يغط فى النوم .. انهم ذاهبون ولا أحد يعلم الى اين ؟.

هل رأيت وجوههم من قبل ؟ الم تر وجوههم فى كل مكان ترددت عليه فى مدن جميع البلاد النامية ؟ .

من هم سكان المدينة ؟

يبدو أن الموجة الحالية الى المدن تمثل نوعا من التحضر مختلفا كل الاختلاف عن التحضر القديم ، وخاصة فيما يتعلق بنوعية السكان . من هذا مثلا أن التيار الحالى يتدفق بجموع هائلة من الناس . وهو يضم مهاجرين قادمين بأنماط جديدة من العلاقات ، ليسوا مجرد خدم كما كانت الحال فى العصور القديمة ، وانما كعمال صناعيين للمستقبل . وهم لم يأتوا لاقامة عابرة ، وانما ليبقوا نهائيا . وكان أمثال هؤلاء الناس يخضعون فى الماضى مباشرة لاشراف الأوروبيين الذين كانوا يعيشون فى المراكز الكبرى، أما الآن فالوضع يختلف كثيرا . اذ هم يمثلون اليوم سكان الحضر الجدد بين أهل البلاد (*) .

(*) قدم عبد المنعم شوقى فى كتابه : « مجتمع المدينة » ، السابق الاشارة اليه (صفحات ٢٠١ — ٢٥٨) دراسة حالة مدينة أسيوط من هذه الناحية . اذ فصل الكلام عن التركيب السكانى للمدينة ، فتناول — علاوة على النمو والكثافة — موضوعات : توزيع السكان حسب النوع — توزيع السكان حسب الجنس — توزيع السكان حسب الحالة الزواجية — توزيع السكان حسب الحالة التعليمية — توزيع السكان حسب النشاط الاقتصادى .

(المترجم)

المهـــاجر والمقيم :

ولكن من هم هؤلاء المهاجرون ؟ من هو المهاجر فعلا ؟ ومتى يتحول زائر احدى المدن الكبرى الى مقيم بها ؟ ومتى يصبح المهاجر انسانا حضريا ؟ تلك بعض الأســـئلة التى حاول الاجابة عنها بالتفصيل كلايد ميتشيل (١) . وهل يصبح المهاجر او زائر المدينة انسانا حضريا منذ اليوم الأول لوصوله ؟ أم هل يمكن اعتباره حضريا اذا ما غادر المدينة بعد أن ادخر قدرا ضئيلا من المال بعد فترة اقامة قصيرة فيها الى غير عودة ؟ ام انه لا يصبح حضريا الا بعد ان يولد له أطفال فى المدينة ويستقروا فيها نهائيا ؟ هل لاتتحضر أسرة الشخص الا فى الجيل الثانى ؟ من هو اذن ساكن المدينة : متى يمكننا القول بأنه أصبح كذلك ؟ .

لقد كانت مثل هذه الأسئلة اكثر اثارة للحيرة فى بعض مراحل النمو الحضرى السابقة فى البلاد النامية عنها فى الوقت الراهن ، اذ يبدو أن هناك تناقصا مستمرا فى الهجرة من المناطق الريفية بهدف البقاء فترة محدودة فقط فى المدينة ثم العودة بعدها الى القرية مرة أخرى . فقد ازداد اليوم احتمال استقرار المهاجر الريفى المدة الباقية من حياته فى البيئة الحضرية . ماذا جاء فرد الى المدينة ، وعاش بها بعيدا عن الريف لفترة عشر سنوات أو اكثر فمن الأمور البعيدة الاحتمال أن يرجع الى القرية ، اللهم للزيارات العابرة (٢) .

الاعداد والخصـــــائص :

من هم السكان المستقرون فى المناطق الحضرية ؟ تختلف الأعداد من بلد الى بلد ، كما تختلف تبعا لحجم المدن . والاحصائيات فى هذا الصدد

---

(١) J. Clyde Mitchell, «Urbanization, Detribalization, and Stabilization in Southern Africa : A Problem of Defnition and Measurement», Report of the International African Institute, London. Prepared under the auspices of UNESCO. Social Implications of Industrialization and Urbanizationin in Africa South of the Sahara (Pars : UNESCO, 1956).

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٠٣ .

وغيرة . وعلاوة على هذا فان سكان المناطق الحضرية يعيشون فى ظل ظروف معيشية متفاوتة أشد التفاوت ، وخاصة من حيث الكثافة . فالأوربيون او غيرهم من الغربيين عموما ، والذين كانت اعدادهم صغيرة دائما — نسبيا طبعا — يعيشون فى المدن أساسا ولو أن هناك بعض الحالات التى كان الاوروبيون فيها يستقرون فى البلاد الأجنبية فى المزارع أساسا . وهو ما عرفناه فى فترة ما قبل الاستقلال فى بعض البلاد مثل كينيا وجنوب افريقية (*) غير ان هذا لم يكن النمط الشائع فى العادة اذ اعتاد الزوار الأوروبيون — وهذا هو وضعهم الحقيقى — الاستقرار فى المناطق الحضرية حيث يزداد احتمال توافر وسائل الراحة التى اعتادوها . فالأوروبيون أو الغربيون يتصفون بما أسماه داريل فورد Daryll Ford الارتباط المستمر بالمجتمعات الخارجية لا الالتزام والاهتمام بالمدينة التى يعيشون فيها (٣) . وفضلا عن ذلك فان اتجاهاتهم وسمات اقامتهم فى مدن البلاد النامية تتصف بأنها عابرة . فهم بصفة عامة يرون أن التزاماتهم هناك موقوتة فى طبيعتها ، ونادرا ما يضطلعون بالتزام طويل الأمد تجاه المنطقة الحضرية التى يعيشون فيها . فالاهتمام الأساسى فى هذه المنطقة لاينصب — على أية حال — على الأوروبيين أو الغربيين — ذوى الجموع الضئيلة نسبيا — الذين يسكنون المدن فى البلاد النامية ، وانما على أبناء تلك البلاد .

وتشمل سمات سكان الحضر الوطنيين فى البلاد النامية : العمر ، والنوع ، والتعليم والمهنة ، والدخل ، ونسبة انتشار المرض ، والوفيات ، والصحة العقلية ، والخصب . ونلاحظ أن المعلومات الخاصة بكثير من هذه الموضوعات نادرة نسبيا ، وليست متاحة على مستوى واحد بالنسبة

(*) لعل وصف اعلان اتحاد جنوب افريقية ثم جمهورية جنوب افريقية من بعد من جانب المؤلف باستقلال يستوجب منا بعض التعليق . فالاستقلال تم من وجهة نظر المستوطنين البيض وعن البلاد الام التى جاءوا منها أساسا . اما من وجهة نظر السكان الافريقيين السود فلم يحدث استقلال للظروف التى نعرفها جميعا عن جنوب أفريقية . (المترجم)

(٣) Daryll Ford, : «Social Aspects of Urbanization and Industrialization in Africa : A General Review.

مقال فى كتاب هيئة اليونسكو المعنون : « افريقية جنوب الصحراء » . ص ٤٠ — ٤٥

اجميع البلاد ، بحيث سيكون من المحتم اطلاق بعض التعميمات التى قد تشذ عنها بعض الحالات الفردية .

اذا تأملنا أعمار سكان الحضر فى البلاد النامية اتضح لنا أن نسبة عالية من السكان تقع فى فئة العمر من ١٥ الى ٤٠ سنة . وغالبا مانجد أن عدد الأطفال صغير نسبيا بالقياس الى مجموع السكان ، ولو أن هناك بعض الاستثناءات على هذا كما هى الحال بالنسبة لهونج كونج مثلا . كما أن كبار السن قليلو العدد نسبيا بالقياس الى نسبتهم العامة فى مجموع سكان البلد . وتفسير ذلك أن معظم كبار السن من القرويين لا يهاجرن الى المدينة ، وانما يميلون الى البقاء فى القرية . ثم انه لما كان معدل الوفيات فى الحضر هو نفس معدل الوفيات فى ريف البلاد النامية ؛ فمن غير المتوقع أن تكون هناك نسبة كبيرة من السكان فى الفئات العمرية المتقدمة . وان كان هذا الوضع قد بدأ يتغير تدريجيا فى السنوات الأخيرة بسبب التقدم الهائل فى مستوى الصحة العامة والرعاية الطبية التى زادت متوسط العمر بشكل ملحوظ . وقد أشار كومهير — سلفان Comhaire — Sylvain الى بعض الدلالات الطريفة لضآلة عدد كبار السن بين سكان الحضر ودرجة الاستقرار النسبى فى المناطق الحضرية (٤) . غير ان تدليله على ذلك ليس مقنعا ، خاصة اذا افترضنا أن وجود كبار السن يؤثر فى سلوك الأصغر سنا بسبب ما يبدونه نحوهم من احترام وتبجيل .

أما خصائص سكان الحضر من حيث الاختلافات فى النوع (ذكر او انثى) فتختلف بين أجزاء العالم المختلفة . فنجد فى الدول الغربية المتقدمة اقتصاديا أن الطابع العام هو زيادة عدد الاناث على عدد الذكور فى المناطق الحضرية . ومع اننا قد نجد أن هذا هو نفس الوضع فى البلاد الناميه ؛ الا ان هناك كثيرا من الاستثناءات (٥) ونجد فى معظم البلاد النامية أن المناطق الحضرية

---

(٤) S. Comhaire — Sylvain, Food and Leisure Among the African of Leopoldville.

مقال فى كتاب اليونسكو المعنون : افريقية جنوب الصحراء ، ص ٢١٢ .

(٥) الامم المتحدة ، الموقف الاجتماعى العالمى ، ١٩٥٧ ، ص ١١٨ .

تتميز بزيادة عدد الذكور على الاناث . وهناك استثناء بارز واحد على الأقل من هذا هو أمريكا اللاتينيه . فاذا حكمنا من واقع تقارير اليونسكو لوجدنا أن أمريكا اللاتينية تتميز بزيادة عدد الاناث على عدد الذكور فى المناطق الحضرية من بلادها (٦) . وربما تأثر هذا بعض الشىء بمراحل التحضر ، والعادات الاجتماعية الراسخه ، واشتغال المراة خارج البيت ، والاختلافات الأخرى المتعددة بين بلاد أمريكا اللاتينية والبلاد النامية فى باقى اجزاء العالم .

اما فيما يتعلق بمستويات التعليم فى الحضر ، فنجد أن بلادا بأكملها لا يزيد عدد خريجى الجامعات فيها على بضع عشرات ويرجع هذا من ناحية الى ضآلة عدد الأشخاص نسبيا الذين تلقوا تعليما جامعيا ، وان كان يرجع فى بعض الحالات أيضا الى استقطاب أبناء البلاد الذين كانوا يتعلمون فى الخارج واختاروا عدم العودة الى وطنهم . ومن الواضح أن هذا يمثل خسارة جسيمة للغاية للوطن الأم ؛ اذ يترتب على نقص عـــدد خريجى الجامعات بين السكان حدوث نقص فى الأشخاص ذوى الكفاية اللازمين لتطوير البلاد والوصول بها الى مرحلة وطنية ناضجة . ولو انه اتضح فى أمريكا اللاتينيه أن الأمية فى المناطق الحضرية كانت اقل من المتوقع بعض الشىء (٧) . والمتوقع بصفة عامة أن معرفة القراءة والكتابة فى المناطق الحضرية أعلى منها فى المناطق الريفية ، وهناك من الشواهد ما يؤكد صحة هذا بالنسبة للمناطق الحضرية فى معظم البلاد النامية .

وبالنسبة للسمات المهنية لسكان الحضر فهى طريفة وتعتبر مؤشرات هامة لجاذبية الحياة فى مثل هذه المناطق الحضرية . ونجد فى جميع الحالات تقريبا أن المهاجر الحضرى يأتى الى المدينة غير معد على الاطلاق لشـــق طريقة بنجاح فى المجتمع الحضرى ، أكثر من وظيفة العامل باليومية . ويرجع هذا ـــ فى بعض منه ـــ الى افتقاره الى المهارات ، بل والى اللغه فى بعض الأحيان ، وعدم الدراية بأساليب أهل المدينة التى يمكن أن يشق بها لنفسه طريقا فى الجوانب الأكثر انتاجية من سوق العمل فى المدينة . ونلاحظ أن تعدد الاختلافات المهنية الحضرية فى ازدياد مستمر .

---

(٦) اليونسكو ، أمريكا اللاتينية ، ص ٢٨ .

(٧) اليونسكو ، أمريكا اللاتينية ، ص ٦٤ .

ويميل الشخص غير المؤهل للعمل الى الاشتغال بالخدمات الهامشية . ويبدو أن نسب الاشتغال فى الخدمات أعلى منها فى المهن الصناعية وهو وضع يناقض تماما ما هو موجود فى العالم الغربى ، حيث تنمو مجموعات الخدمات فى فترة لاحقة فى اثناء عملية التحضر على خلاف الوضع فى البلاد النامية (٨) .

ولا ينتمى معظم سكان الحضر الى « مهنة » معينة ، وانما هم يعملون حيثما أتيحت لهم فرصة العمل . وهناك اختلافات هائلة فى الدخل بين القوة العاملة فى البلاد النامية . وقد يصل معدل دخل العامل المهنى الى العامل الصناعى — على سبيل المثال — ١٥ أو ٢٠ الى واحد ، أو أكثر من هذا . وذلك على خلاف الوضع فى البلاد الغربية حيث يبلغ الاختلاف بين العمال المهنيين والصناعيين ٣ أو ٤ الى واحد المهم أن نتذكر هنا أن الغالبية العظمى من عمال البلاد النامية لا يشتغلون بمهن صناعية . ومن المتوقع أن تكون هناك فروق اعظم فى الدخل بين المهن المتخصصة والمهن الصناعية التى يميل اليها الذكور والاناث من المهاجرين ، وكذلك سكان المدينة ذوو الاقامة الطويلة (٩) .

على أن توزيع القوة العاملة على هذا النحو فى البلاد النامية لايعكس اى عجز واضح من جانب الناس عن أداء المهن الحضرية . وقد ثبت أكثر من مرة أنه لدى جميع الناس — حتى الأميين منهم — القدرة على العمل أمام الآلات . من هذا مثلا أن صانعى الأدوات الميكانيكية الذين نراهم فى

---

(٨) ويلبرت مور ، التغير الاجتماعى .

Wilbert E. Moore. Social Change (Engleyood Cliffs, N.J.: Prentice — Hall, Inc., 1963). P. 101.

(٩) تكستور وزملاؤه : « الدلالات الاجتماعية للتصنيع والتحضر : خمس دراسات فى آسيا » كلكتا ، مركز اليونسكو لبحوث الدلالات الاجتماعية للتصنيع فى جنوب آسيا ، ١٩٥٦ ، ص ١٧ من المقدمة .

(وسنشير اليها فيما بعد على سبيل الاختصار باسم : تكستور ، مشرف على التحرير ، خمس دراسات فى آسيا) .

R. B. Textor et al., The Social Implications of Industrialiaztion and Urbanization : Five Studies in Asia (Calcutta : U N E S C O Research Center on the Social Imptications of Industrialization in Southern Asia, 1956).

المصانع الصغيرة فى كثير من مدن الهند يثبتون مقدرة كبرى على تصنيع بعض الأدوات الميكانيكية الغربية الفائقة الدقة عن طريق المحاكاة . ولكنا نجد — بالرغم من ذلك — ان سكان الحضر العاديين معزولون عن معظم الوظائف المهنية ، وشبه المهنية ، والادارية الاشرافية ذات الدخول العالية . ويكاد يقتصر تشغيلهم تقريبا على فئة عمال اليومية ذات الدخول المخفضة .

ومن المهم أن نتذكر هنا أن القوة العاملة الحضرية فى البلاد النامية تتضمن كذلك جموعا ضخمة من الاطفال الذين يجب احتسابهم ضمن القوة العاملة ، برغم انهم بصفة عامة لا يعملون الا بعض الوقت فقط ، وكثيرا ما يتركزون فى وظائف المساعدين المنخفضة ؛ أو يضطلعون ببعض الأعمال الروتينية البغيضة فى بعض المهن الأخرى . وهناك فضلا عن هذا عدد لا يستهان به من النساء فى سوق العمالة فى كثير من البلاد وليس فى جميعها ، وذلك بدافع الحاجة الى استكمال الأجور الهزيلة التى يحصل عليها أزواجهن . وتتركز هؤلاء النسوة فى أنواع الخدمات المنزلية أو تلك التى تؤدى داخل البيت ، ولو أننا يمكن أن نجد فروقا هائلة بين البلاد المختلفة فى نسب النساء الى مجموع السكان اللائى يدخلن تحت هذا النوع من النشاط .

وكما سبق أن لاحظنا فان الأجور التى يكسبها السكان الحضريون غير الفنيين شديدة الانخفاض ، ولا تكاد تسمح لهم بالحد الأدنى من التحضر . أما اجور العمال شبه الفنيين فأفضل بعض الشيء ، ولكنها لا ترقى مع ذلك الى المستويات التى نعرفها فى المدن الغربية . بل ان مجموع دخل الأسرة لا يكفى فى أغلب الأحوال للوفاء بجميع متطلبات الأسرة أكثر من المستوى الحدى (١٠) .

أما المرض والموت فى البلاد النامية فهما من الموضوعات التى لانعرف عنها كثيرا من التفاصيل . ومن الواضح على اى حال أن الخدمات الطبية المتوافرة فى المناطق الحضرية كان لها أعظم الأثر فى تخفيض معدلات الوفاة ،

---

(١٠) N.D. Oram, «Aspects of Town Growth in Underdeveloped Countries», Australian Planing Institute Journal, 2 (April 1964), 274, citing UN, World Social Situation : 1957, PW 155.

خاصة بالمقارنة بالمناطق الريفية والمناطق النائية التى تكاد تفتقر كلية الى الخدمات الطبية . بمعنى آخر أن الوفيات فى المناطق الحضرية اقل منهـا بصفة عامة فى المناطق الريفية . ومن الأمور البالغة الصعوبة الحصول على بيانات عن طول الحياة وعلاقته بمعدلات المرض . ولو انه من المتوقع أن نجد بصفة عامة أن الغذاء ذا القيمة الغذائية المنخفضة والاكتظاظ السكانى الشديد الذى يعيش فيه المهاجرون بالذات لايساعة على الحياة فى مستوى صحى مرتفع . وفضلا عن تأثير تلك الظروف فى الصحة العامة لسـكان الحضر ، فانها يمكن أن تؤثر — وهى تؤثر فعـلا — تأثيرا ملحوظـا فى الصحة العقلية لساكن الحضر (١١) .

اصـول سـكان الحضر

اذا كانت حالة سكان الحضر بمثل هذا السوء الذى رأيناه فلنا أن نتساءل عن سبب هذه الهجرة الكبيرة الى المناطق الحضرية . وليست تحت أيدينا سوى معلومات ضئيلة كل الضالة عن العوامل التى تدفع سكان المناطـق الريفية والقرى الى الهجرة الى المدن الكبرى (*) .

---

(١١) الامم المتحدة ، الموقف الاجتماعى العالمى ، ١٩٥٧ ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(*) أوضح عاطف غيث فى دراسته « القرية المتغيرة » بعض الظروف الاساسية التى أدت الى تدفق المهاجرين من الريف الى المدينة . اذ لما كانت القوى البشرية فى ازدياد مستمر مع ثبات مساحة الارض على حالها ، فقد تأثر المستوى الاقتصـادى الذى ظـل فى الانخفاض باستمـرار . وهـو انخفـاض لا يحـدث فجـأة وانـما يتم تدريجيـا وهـو فى سـيره يصـل الى نقطـة حرجـة تؤدى الى اختـلال التوازن بصـورة واضحة ، الامر الذى تترتب عليه تغيرات هامة . ولذلك كانت الهجرة أول علامة من علامات التغير الاجتماعى الذى ترتب على اختلال هذه العلاقة التى ادت الى انخفاض المستوى الاقتصادى .

والى جانب اختلال علاقة السكان بالارض . ونتيجة للتغيـرات الاجتمـاعية فى القـرى وخصوصا من الناحية الاقتصادية ، فقد اخذ النشاط الاقتصادى يتجه اتجاها آخر غير الاتجاه القديم ، وخصوصا فى علاقته بالمدينة . الامر الذى جعله يتخذ طابع انتاج السوق بعد أن كان انتاجا محليا .

ونتيجة هذه الظروف جميعا زادت صلات القرية بالقرى المجاورة وبالمدينة وبالحكومة . ولم يكن هذا اتجاها من جانب القرية وحدها ، بل أن القوانين المنظمة للانتاج الزراعى والحياة الاجتماعية عامة كالزواج والطلاق والجندية والضرائب والمواليد والوفيـات ... الخ قـد زادت من تدخل المدينة فى شئون القرية عن طريق اجهزة الدولة .

فهذه جميعا — من بين أخرى عديدة — عوامل اساسية فى توجيه طوفان الهجرة المتزايدة من الريف الى المدينة .

قارن : عاطف غيث ، القرية المتغيرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة — ١٩٦٤ [المترجم] .

وهناك خلاف كبير حول ما اذا كانوا « يدفعون » الى المناطق الحضرية بفعل بعض الظروف التى لا يملكون سيطرة عليها ، أو أن السبب الذى يدفعهم الى الهجرة الى المناطق الحضرية هو قوة « الجذب » التى تمارسها المنطقة الحضرية على أولئك الذين يعيشون خارجها .

بين العوامل « الطاردة » و « الجاذبة » :

الواقع أن من الصعب البت فى الجدل الدائر حول العوامل « الطاردة » و « الجاذبة » . فمن الواضح كل الوضوح أن لكل من العوامل الطاردة والجاذبة تأثيرها فى حركة سكان الريف والقرى الى المناطق الحضرية . ويبدو أن الشواهد تشير الى أن قوة الطرد للظروف الريفية القائمة هى التى توحى الى سكان الريف بأن الأمور قد تكون أفضـــل فى المدينة .

وهناك عوامل من طبائع متباينة تؤثر فى الهجرة الى المناطق الحضرية . فاذا كان نظام ملكية الأرض — على سبيل المثال — يؤدى الى تفتيت الأرض باستمرار من خلال التوريث لأكثر من جيل ، أو اذا كان بناء الأسرة من ذلك النوع الذى يؤدى فيه حق البكورة (*) الى استبعاد الأبناء الصغار بواسطة الابن الأكبر الذى يرث كل شىء فاننا نجد عندئذ أن القدرة على البقاء تتأثر أو تنعدم فعلا ، مما يترتب عليه زيادة عدد الاشخاص الذين يحتمل أن يهاجروا ، ربما الى المناطق الحضرية (١٢) .

ومن بين العوامل الطاردة التى تجبر سكان الريف على الهجرة الى المناطق الحضرية علينا أن نأخذ العوامل التالية فى الاعتبار : التضخم السكانى فى المناطق الريفية الذى تكون له دلالاته بالنسبة لكمية الطعام او العمل المتاح ، تضاؤل الفرص التى تسمح بالحصول على الأرض التى يمكن فلاحتها والتعيش منها ، وتضاؤل فرص العمل فى الحكومة والمؤسسات التى قد لا تتوسع بالمعدل المناسب للزيادة فى عدد سكان الريف . ويبدو أن العامل الأخير يمارس أقوى تأثير طارد فى سكان الريف ليهاجروا الى

(*) يقصد بحق البكورة Primogeniture حق البكر فى الارث كله دون سائر الابناء (المترجم)

(١٢) يدين المؤلف لنيل سملسر بتنبيه الى أن تلك أيضا من بين العوامل « الطاردة » التى تؤثر فى معدلات الهجرة .

المناطق الحضرية . ولو ان ذلك قد لايفسر لنا بالضرورة لماذا يبقى المهاجرون الريفيون الى المدينة فيها ، أو لماذا يعود بعضهم الى المناطق الريفية التى جاءوا منها اصلا . وترى دراسة اليونسكو المعنونة : « التحضر فى آسيا والشرق الاقصى » ان نمو المدن يرجع الى بعض العوامل مثل : « انخفاض نصيب السكان من الارض الناشىء عن سرعة نمو السكان بالنسبة لنمو الموارد الزراعية » وكذلك « التمزق والتفكك الناشىء عن الحرب العالمية الثانية وما اعقبها من تغييرات سياسية » (١٣) .

وعلاوة على هذا فان الطبيعة الموسمية للعمل فى الزراعة تنطوى عادة على فترة فراغ بين زراعة المحصولات وحصدها ، مما يتيح تلقائيا فرصة الهجرة الى المدينة اذا لم يكن هناك عمل فى مجال آخر .

وقد يكون هناك شعور بالحرمان النسبى ينشأ فى المناطق الريفية عندما يدرك الريفيون ان هناك مناطق اخرى — حضرية اساسا — يمكن ان يعيشوا فيها ، خاصة حيث تكون مستويات المعيشة فيها اعلى مما اعتادوه فى بلادهم . فيتعلم سكان الريف ان يطلبوا لأنفسهم بعض ما تتمتع به المدينة . وينظرون بعين الاهتمام الى الدخول العالية التى يسمعون عنها ، وتوفر فرص التعليم ، وغير ذلك من الخدمات التى يسمعون انها متوافرة فى المدينة . كما ينظرون باهتمام بالغ الى الحريات الأكبر من صور القهر ، وهى الحريات التى يسمعون انها موجودة فى المناطق الحضرية . وذلك بغض النظر عن الحقيقة التى مؤداها ان تلك التوقعات قد لاتكون اكثر من آمال كاذبة .

وهناك بعض سكان الريف الذين يتعرضون لاغراء المدينة من خلال فترة الخدمة العسكرية او الاضطرابات المدنية التى تقع فى الريف ، كتلك التى حدثت — على وجه الخصوص — بسبب الحرب العالمية الثانية والسنوات التى اعقبتها . ومن الطبيعى ان يؤدى اى غزو لاحدى المناطق الريفية وانعدام الأمن فيها الى دفع اى عدد من السكان يمكن أن يتحرك نحو المدينة . وتؤدى الثورات — كتلك التى وقعت فى أثناء تقسيم الهند وانباكستان — الى خلق عدد من اللاجئين الذين يندفعون فى الغالب تجاه المدن الكبر .

---

(١٣) اليونسكو ، آسيا والشرق الاقصى ، ص ٣٤ .

اما عن اغراء المدينة الكبرى ، أو قوة الجذب فيها ، فترجع فى جانب منها الى خبرات من هذا النوع ، كما ترجع فى جانب آخر الى المعلومات التى تروج عن المزايا — أو على الاقل المزايا المزعومة — للحياة فى المدينة ، بصرف النظر عن درجة الوصـــول الى تلك المزايا فعلا . فالطرق المرصوفة الجيدة ، والراديو ، وممثلوا الحكومة الذين يتحركون وسط الريفيين ، وغير ذلك من مؤثرات الاتصال تؤثر الى ابعد حد فى طبيعة ونوعية المعلومات التى ترد الى المناطق الريفية عن المدينة ، والتمييز بين المزايا المزعومة والمساوىء .

بل انه قد تكون هناك بعض عناصر السياسة القومية المسئولة عن حركة السكان من المناطق الريفية الى الحضرية . من هذا مثلا أن يؤدى الأخذ بالزراعة الجماعية فى بعض الحالات الى خلق فائض فى العمالة فى المناطق الريفية ، مما يحمل الناس على الهجرة الى المناطق الحضرية . كما يمكن أن يؤدى تخصيص الاعتمادات المالية القومية للتنمية الصناعية فى المدن الرئيسية — بدلا من استثمار هذه الاعتمادات فى المناطق الريفية — الى جعل المدينة اكثر جاذبية من الريف بالنسبة لسكان الريف المضارين بهذه الطريقة .

وقد انتهى دونالد بوج Donald J. Bogue وزخاريا K. C. Zachariah فيما يتعلق بخصائص المهاجرين الى المدن الى النتائج التالية :

١ — أن الهجرة من الريف الى الحضر فى الهند ليست بالأمر التافه ، وانما هى ظاهرة واسعة الانتشار .

٢ — أن الهجرة لا تتدفق تجاه المدن الكبرى فقط ، وانما تتجه كذلك الى مئات المدن ذات الأحجام الوسطى والصغيرة فى جميع الأقاليم ، فيما عدا تلك المدن التى تأثرت عكسيا من جراء التقسيم .

٣ — على الرغم من أن تلك الهجرة قد اتخذت فى البداية بعض سمات حركات « الرواد » — اى سيطر عليها عنصر الرجال اساسا — فقد شهد العقد الخامس من هذا القرن (من ١٩٤١ الى ١٩٥١) هجرة الى المدن يكاد يتساوى فيها عدد الذكور والاناث .

٤ ــ ليست هناك شواهد يعتد بها على كراهية القرويين السعى وراء مستقبلهم فى المدينة. فالواقع أن بيانات البطالة تدل على أنهم يزدحمون فى المدن بحثا عن العمل . والأمر القريب الاحتمال جدا أن البطالة فى المدن هى « الفرملة » الرئيسية للهجرة من الريف الى الحضر فى الوقت الراهن ، وليست القيود التى يفرضها التراث الثقافى فى القرى .

٥ ــ ولعل تلك الزيادة الملحوظة فى الهجرة الى الحضر تمثل ظاهرة حديثة نسبيا بدأت فى ثلاثينات هذا القرن . وقد وصلت اليوم الى الحد الذى أصبح فيه لسكان كل قرية تقريبا أقارب أو زملاء يعيشون فى واحدة على الأقل (وربما فى أكثر من واحدة) من المدن الرئيسية . والمعروف أن الروابط العائلية والقروية من القوة بحيث تلقى على المهاجر الناجح عبء مساعدة مهاجرين جدد على القدوم الى المدينة . ويبدو أن ازدياد عدد القرويين الذين يتجهون الى الاقتصاد الحضرى الجديد ، وتدعيم قنوات الهجرة تدعيما قويا سيقود الهند الى مرحلة من التحضر ليس لها نظير حتى الوقت الحاضر ، يدعمها النسق العائلى والثقافة السائدة لا يعوقانها (١٤) .

وعلى الرغم من أن المعلومات خاصة بالهند ، فانه يبدو لنا من المعلومات الأخرى أنها لاتمثل نمطا شاذا على الاطلاق . بل انها تمثل فى واقع الأمر السمة المميزة لجميع أنواع الهجرة التى تتم فى باقى البلاد النامية.

ومن الطريف أن نلاحظ فى استعراضنا لهجرة السكان الريفيين الى المناطق الحضرية فى البلاد النامية أن هناك نوعا من الانتحاء فى جذب سكان الريف الى المدينة الكبرى ، ابتداء من عهد الاستعمار فى جنوب شرقى آسيا ، والشرق الأوسط ، وشبه القارة الهندية ، وأمريكا ــ اللاتينية .

الهجرة الراجعة الى عوامل دولية :

ليس سكان الريف وحدهم هم الداخلين فى الهجرة من مكان الى آخر ،

---

(١٤) Donald J. Bogue and K. C. Zacharia : «Urbanization and Migration in India», in Roy Turner, ed., India's Urban Future (Berkeley and Los Angelos, Calif : University of California Press, 1962), p. 45.

وخاصة تجاه المناطق الحضرية . فقد كانت هناك هجرات دولية الى المدن وبين المدن وبعضها ، مثل هجرة أعداد ضخمة من الهنود من مواطنهم الأصلية الى موانىء مختلفة فى جنوب شرقى آسيا والى هونج كونج ، وهجرة الهنود الى جنوب أفريقية ، وهجرة الصينيين الى هونج كونج ، ورانجون ، وبانجكوك . كما حدثت فى فترات أحدث من ذلك هجرات دولية بعد تقسيم الهند وباكستان ، وهى من نوع يختلف تمام الاختلاف عن الهجرات الى المناطق الحضرية التى نعرفها فى البلاد النامية . غير أن الانتحاء قد أثر أساسا فى سكان الريف الذين يعيشون فى مناطق قرب المدن . وبينما نجد أن الهجرات على المستوى الدولى قد تضمنت فى أغلب الأحوال الانتقال بين مسافات بعيدة ، فان معظم الهجرات التى تتم داخل البلد الواحد تتم بين مسافات قصيرة نسبيا (*) .

قوانين « الهجرة الى المدن» :

لعله من المفيد لأغراض التنبؤ العلمى أن نكون قادرين على الاشارة بثقة الى « قوانين » الهجرة الى المناطق الحضرية فى البلاد النامية . والواقع أن معلوماتنا الآن عن انماط الهجرة مازالت ضئيلة للغاية ، على الرغم من أن الدراسات الجارية قد تكشف عن مستوى من المعلومات أعلى بكثير مما كان متاحا الآن . فهناك — على سبيل المثال — بعض الشواهد التى تفيد

(*) برغم صدق هذا الحكم بصفة عامة فاننا نلاحظ بعض الاستثناءات الهامة عليه فيما يتعلق بالهجرة بين محافظات جمهورية مصر العربية . فمحافظات الصعيد مثلا — وخاصة محافظات الصعيد الاعلى (سوهاج ، وقنا ، واسوان) لا تهاجر الى المحافظات القريبة بقدر ما تهاجر الى القاهرة والاسكندرية ومحافظات القناة الثلاث ، وعلى راسها السويس . فتأتى محافظات الصعيد الاعلى فى المرتبة الثانية بعد المحافظات الريفية المحيطة (القليوبية والمنوفية والجيزة) فى تصدير المهاجرين الى القاهرة (بلغت نسبة ابناء الصعيد الاعلى حوالى ١٢٪ من الذكور المحصورين فى القاهرة عام ١٩٤٧ ، و ١١٪ منهم عام ١٩٦٠) كذلك استوعبت الاسكندرية اكبر عدد من المهاجرين من محافظة اسيوط — بعد القاهرة — طوقا لاحصائيات ١٩٣٧ . وما بعدها .

كما برز فى الاحصائيات الاخيرة دور محافظات القناة فى استقبال مهاجرى الصعيد . وخاصة الاعلى .

قارن عاطف وصفى وعبد الهادى الجوهري ، دراسات فى علم الاجتماع الحضرى ، السابق الاشارة اليه ، ص ١١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٢ وغيرها . (المترجم)

ان الهجرة تتم أولا من المناطق الريفية أو القروية الى المدن الصغرى ، ثم الى المدن الأكبر فالأكبر . ولو أن هناك أيضا قدرا لايستهان به من الشواهد على أن هذه الهجرة التدريجية (*) قد لاتتم ، وانما ينتقل المهاجرون الريفيون أولا الى المدن الصغرى ، ثم الى المدن الكبرى مباشرة ، كما يمكن أن نلاحظ فى البرازيل (١٥) . وقد تصدى هارلى براوننج Harley L. Browning لتفنيد هذا الرأى ، اذ يعتقد أن الهجرة لا تتم بهذا الشكل التدرجى ، واذا كانت هناك قوانين للهجرة الى المناطق الحضرية أصلا ، فمن المرجح انها تختلف من بلد لآخر تبعا للظروف السائدة فى كل بلد . من هذا مثلا ان تدفق المهاجرين بشدة على بعض مراكز التعدين فى جنوب افريقية ينطوى على مجموعة معقدة من العلاقات وانماط الهجرة الحديثة التى قد لانجدها فى دول أخرى تتم فيها الهجرة بهذا الشكل المركز بغرض العمل فى الصناعات الاستخراجية . وهناك شواهد على وجود انواع معينة من الهجرات هى : الهجرة الموسمية (**) ، والهجرة الارتدادية (***) ، والهجرة المتعددة « المركبة » (****) ، التى ستفصل الكلام عنها فيما يلى .

كما يبدو أن هناك قدرا معينا من « الهجرة الطوافة » (*****) . وهى تتمثل فى الأشخاص الذين ينتقلون من مدينة الى أخرى يحاولون فى يأس تثبيت أقدامهم فى أى منها . وقد لاحظ ديشموك Deshmukh فى دراسته عن دلهى ان : ٦٥٪ على الأقل من المهاجرين قد جربوا حظهم فى عدد من المدن يتراوح بين ٦ ، ١٥ أو اكثر » (١٦) .

(*) الهجرة التدرجية . Step — by — step migration

(١٥) الامم المتحدة ، الموقف الاجتماعى العالمى ، ١٩٥٧ ، ص ١٧٥ وانظر كذلك هارلى براوننج « الاتجاهات الحديثة فى تحضر امريكا اللاتينية » مقال بحوليات الاكاديمية الامريكية للعلوم السياسية والاجتماعية عدد ٣١٦ ، مارس ١٩٥٨ ، ص ١١١ — ١٢٠ .

(**) Seasonal Migration

(***) Reverse Migration

(****) Multiple Migration

(*****) Floating Migration

(١٦) ديشموك : دراسة للهجرة الطوافة .
A Study of Floating Migration.

مثال فى كتاب اليونسكو المعنون : « افريقية جنوب الصحراء » ، ص من المقدمة ، ص ١٤٣ وما بعدها .

الانتخـــاب فى الهجرة :

هناك موضوع مرتبط بهذا على جانب كبير من الأهمية هو موضـــوع الانتخاب . أعنى من الذى يهاجر الى المناطق الحضرية ؟ وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الأدلة ليست حاسمة . فالجانب الأعظم من الملاحظات التى قيلت فى هذا الصدد بالذات لا ترتكز على بيانات تفصيلية كثيرة ، وانما على ملاحظة دقيقة لحالات معينة . ويبدو أن هناك انتخابا من حيث النوع على سبيل المثال ، اى أن الذكور اكثر تحركا فى الهجرة من الريف الى المدينة فى البلاد الآسيوية والافريقية . ولو ان هناك من الشواهد ـــ كما سبق أن أشرنا ـــ مايدلنا بالنسبة لأمريكا اللاتينية على أن النساء يتفوقن قليلا فى الهجرة من المناطق الريفية الى المدن (١٧) . ويصدق هذا على جميع حالات الهجرة فى أمريكا الجنوبية اللهم بالنسبة لهنود الانديان Andean Indians حيث يتفوق الذكور على الاناث فى أعداد المهاجرين . وقد قدم العلماء كثيرا من الافتراضات لمحاولة تفسير هذه الاختلافات بين القارات . ومما قيل فى هذا الصدد ـــ على سبيل المثال ـــ ان التحضر فى أمريكا اللاتينية ربما يكون قد قطع شوطا أبعد ، بحيث انه بات هناك نقص فى نسبة الذكور المهاجرين الى المدن . وهو موقف يقترب اقترابا وثيقا من التجربة الغربية بصفة عامة .

أما الهجرة الانتخابية تبعا لدرجة تعليم المهاجرين فموضـــوع معقد عن هذا بعض الشىء . اذ على الرغم من قلة الشواهد التى تحت أيدينا فيبدو أن الوضع فى الهند ـــ على سبيل المثال ـــ ان الاشخاص الأرقى تعليما يهاجرون بأعداد أكبر من سواهم (١٨) . كما توصلت دراسات أخرى الى نتائج مماثلة . ولو أنه من الجدير بالذكر أن نؤكد مرة أخرى ان الادلة على هذه النقطة ليست حاسمة تماما . فلو نظرنا الى الموضوع من وجهة أخرى فقد يعنى ذلك ـــ كما أشار أحد المؤلفين ـــ أن الاشخاص «الفاشلين» فى البيئة الريفية هم الذين يجدون انفسهم عاجزين عن الاندماج فى المجتمع

---

(١٧) اليونسكو ، أمريكا اللاتينية ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٨) Bogue and Zachariah, op. cit. PP. 51 ff.

الريفى ، ومن ثم مضطرين الى الهجرة الى احدى المدن (١٩) . ومن الواضح ان استخدام كلمة « فاشلين » لا يعنى بالضرورة اى تخلف فى مستوى الذكاء ، بل ان كلمة فاشلين تشير الى أفراد يبحثون عن مناخ مختلف يمكنهم فيه البحث عن امكانيات تفتح شخصياتهم ومدركاتهم . وهناك من الشواهد ما يؤكد لنا على اى حال ان الهجرة من المناطق الريفية الى الحضرية تتم بصرف النظر عن اى حاجة واضحة الى عمل الاشخاص المهاجرين .

وهناك كثير من الأسئلة الأخاذة التى لا نستطيع الحصول على اجابة عليها . من هذا مثلا هل هناك اى اشارة الى ان هناك فى الوقت الراهن نسبا من انماط معينة من الريفيين تهاجر الى المدن بشكل أكبر مما كان يحدث فى الماضى ؟ هل هناك اى اختلاف فى مكانة ، وعمر ، وادوار الأشخاص الذين يهاجرون اليوم الى المدن بالمقارنة بأولئك الذين كانوا يهاجرون فى الماضى ؟

الاختلافات المكانية والزمانية فى الهجرة

ليست لدينا سوى معلومات ضئيلة عن الاختلافات المكانية والزمانية فى سمات الهجرة الى المناطق الحضرية الحالية بالقياس الى الماضى . فالبيانات التى تحت أيدينا عن المسافات التى يهاجر منها الناس الى المدينة ضئيلة كل الضآلة . ولو اننا على شىء من الدراية بالحراك المكانى للمهاجرين داخل المناطق الحضرية — كدلهى مثلا — حيث يتحتم على المهاجرين الحضريين الذهاب الى مواقع البناء ، أو كبغداد مثلا ، حيث ينتقل العمال ليكونوا أقرب ما يمكن الى أنواع أخرى من الأعمال ، ثم هناك بطبيعة الحال الحراك الاجبارى حيث تضطر مجموعات من الناس الى مغادرة مكانها عندما تقوم السلطات الادارية المحلية بتطهير المناطق المستغلة بوضع اليد . وتضطر تلك المجموعات الى البحث عن أماكن اقامة جديدة بغض النظر عن مدى دوامها .

---

(١٩) Wilbert E Moore, «Industrialization and Social Change» in B.F. Hoselitz and W. E. Moore, eds. Industrialization and Society ; (Paris and the Hague : UNESCO — Mouton. 1963) PP. 332 — 33.

الحـــراك :

هناك بعض الاختلافات الموسمية وغيرها من أنواع الاختلافات الأخرى فى الحراك تتمتـــع بأهمية كبرى ، مثل الهجرة الارتدادية والاتجاهات الدائرية . ففى كثير من بلاد العالم تنقضى فترة طويلة بين زرع المحصولات وحصدها مما يتيـــح فرصة الهجرة المؤقتة الى المناطق الحضرية . وفى هذه الفترة تتحمل النساء مسئولية العناية البسيطة بالحقول ، ثم يعود رب الأسرة الى القرية لجنى المحصـــــول ومن المحتمل جدا أن تتم بعض الهجرات ـــ وخاصة الهجرة الى المدينة لأول مرة ـــ تحت تلك الظروف .

الاختلافات الموسمية وغيرها :

هنـــاك أنواع أخرى من الهجرة المؤقتـــة ، التى تتراوح مدتها بين اسابيع قليلة وعدة شهور ، أو حتى بضع سنوات فى حالة الشبان الذين يهاجرون بمقتضى عقـــد لقضاء فترة محـــددة سلفا للعمل فى احـــدى شركات التعـــدين مثلا . ولا يتضمن هـــذا النـــوع من الهجرة عادة اصطحاب الأسر ، انما هى هجرة فردية يقوم بها الأشخاص الذين يسكنون مدة العقد أو فترة العمل على حساب الشركة . وبعد انتهاء المدة يعودون الى قراهم او الى المناطق الريفية التى أتوا منها . ولو أن الوضع الأكثر شيوعا أن يهاجر الناس لفترة قصيرة نسبيا لتجربة الحياة هناك ، ثـــم يعودون فى هجرة ثانية أو تالية حيث يزداد احتمال اقامتهم نهائيا . ومع كل رحلة يتعلمون كيف يتغلبون على مشكلات اقامتهم فى الحضر . ولذلك فان كل لقاء جديد مع المدينة يجعل أمر البقاء نهائيا أكثر يسرا وسهولة ، ويجعل العودة الى بلادهم أقل اغراء .

أما موضوع الهجرة الارتدادية ـــ أعنى هجرة العودة الى الريف ـــ لمن سبق لهم الهجرة فهو من الأمور الفائقة الأهمية . وتدلنا الشواهد على أن الهجرة الارتدادية ضئيلة الحدوث للغاية اللهم الا تلك الحالات التى يكون المألوف فيها أن يهاجر الشخص الى المدينة لفترة قصيرة ، ليدخر قدرا من المال ، ثم يعود بعدها الى قريته (*) وقد ترجـــع قلة الهجرة

(*) أفضل نموذج للهجرة الارتدادية عندنا ما نجده عند أبناء النوبة حيث يهاجرون ـــ وخاصة الذكور أساسا ـــ الى المدن الكبرى للعمل وتكوين مدخـــرات كافية ، يعـــــودون بعدها الى قراهم فى أواخر العمر للاقامة فيها نهائيا . وهم فى أثناء اقامتهم الطويلـــة فى المدينة التى يمكن أن تمتد الى ربع قرن يزورون قراهم على فترات منتظمة ، ويواظبون على أى حال على ارسال النقود لذويهم الذين يتحملون مسئولية اعالتهم . (المترجم)

الارتدادية هذه الى عوامل متعددة . ففى بعض الحالات يكون البقاء فى المدينه مبعثا للافتخار . ومن غير المحتمل أن يعود الشخص الذى لم يوفق فى المدينة الى قريته حفاظا على ماء وجهه . وفضلا عن هذا فان الرغبة فى اظهار نفسه بمظهر الناجح يؤثر فى نوعية المعلومات التى تنتقل من المدينة الى الريف ، فلا تنقل الى القرية سوى كل « أخبار طيبة » . ويرى « كلايد ميتشيل » أنه من الأمور البعيدة الاحتمال أن يعود المهاجر الريفى للحياة فى قريته مرة أخرى اذا ظل بعيدا عن مجتمعه الريفى لفترة عشر سنوات او اكثر ، اللهم الا ان يسافر الى القرية لقضاء بعض « الاجازات العارضة » (٢٠) . وقد وضع ميتشيل مقياسا لاستقرار التحضر الذى يستطيع بواسطته أن يقدر احتمالات هذه الظاهرة وهناك فضلا عن هذا بعض الدلائل على أن الهجرة من الريف الى الحضر أكثر دواما فى امريكا اللاتينية عنها فى بعض البلاد النامية الاخرى (٢١) . ويورد « أجاروالا » Agarwala من الادلة ما يؤكد — كما هو متوقع — أن الهجرة الارتدادية أكثر حدوثا بين كبار السن منها بين الشباب (٢٢) .

الفرد الحضرى والأسرة

يجب علينا عند النظر الى سكان الحضر — حياتهم ومجتمعهم — أن نتذكر دائما أن المهاجرين يتدفقون على المدينة من أماكن لها ثقافتها الخاصة التى قطعت شوطا بعيدا فى سبيل الرقى والاكتمال . ويحمل هؤلاء المهاجرون الكثير من عناصر تلك الثقافة معهم الى المدينة دون أن يدروا الى أى حد سيحاولون رفضها والتخلص منها . وليس هؤلاء المهاجرون بالشخصيات التافهة التى لا وزن لها ، ولا هم عجينة طيعة سهلة التشكيل . فهم يقدمون الى المدينة مغلفين بغشاء من التراث القبلى الريفى وبأساليب

---

(٢٠) انظر : ميتشيل ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢١) Philip M. Hauser, «Rapporteurs, Report». مقال فى اليونسكو المعنون : امريكا اللاتينية ، ص ٤٥ .

(٢٢) انظر : اجاروالا : طريقة لتقدير الهجرة السكانية خلال عشر سنوات فى بعض مدن الهند من واقع بيانات التعداد الهندية ، مقال بالمجلة الاقتصادية الهندية ، المجلد الرابع ، عدد رقم ١ ، فبراير ١٩٥٨ ، ص ١٧ . (المترجم)

مستقرة فى السلوك وفى العمل ، وانماط محددة من الولاء والالتزامات ، والأوضاع الاقتصادية ، وانساق الضبط ، وقنوات الاتصال ، وهى جميعا اشياء ليس من السهل ان تموت فى البيئة الحضرية . والواقع أن هـذه العادات الاجتماعية تتدعم بشدة من خلال نوع البيئة التى يحتمل أن يهاجر اليها الفرد .

الفـــرد الحضـــرى :

وهكذا فان وضع المهاجر فى البيئة الحضرية الجـديدة ينطوى على استجابات لثقافته القديمة ، وعلى صراعات وتوترات مع البيئة الحضرية الجديدة والمختلفة تمام الاختلاف عادة ، وكذلك مع الأدوار الجديدة التى يؤديها . ولا يكون على المهاجر أن يعيش جسمانيا فحسب ، بل عليه كذلك ان يحافظ على كيانه فى ظل الظروف الاقتصادية الاجتماعية الغريبة عليه الى حد بعيد . ومن المستحيل عليه أن يمزق اواصره بسهولة ببيئته القديمة . ونجده مزودا ببعض المعايير القليلة التى يقرر على أساسها اى أجزاء الثقافة الجديدة يمكن أن يتبناه وايها يرفضه ، واى العناصر يجب أن يعيد تشكيله ويبرره متخذا منه اسلوبا جديدا فى الحياة ، واى عناصر حياته وأساليبه الماضية ينبغى له أن يدفعه الى الاعماق ، أو يختزنها فى العمق . وليس من السير فى واقع الأمر — مثلا — الاستعاضة بالعلاقة المالية عن مجموعة الالتزامات التى كان يمارسها فى القرية من قبل . وتأتى الضغوط الى حد ما من السرعة اللازمة لتغيير أساليب الحياة الريفيـة بأساليب أخرى حضرية ، وهو نوع من التحول الاجبارى الذى يكلف الشخص ثمنا باهظا . وقد يكون لهذا التحول الاجبارى — كما سنرى فيما بعد — خاصة عندما يمارسه الانسان من أجل البقاء بعض النتائج السلبية ، بل واللا اجتماعية . وهناك بعض الشواهد التى تدلنا — مثلا — على أن التوتر والضغوط التى ترتبط بهذا التحول تكون مصحوبة بمعـدلات عالية من ادمان الخمور ، والمخدرات ، وانحراف الأحداث ، والجريمة ، والاضطرابات العقلية (٢٣) .

---

(٢٣) أنظر : مور ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣ ، وفورد ، المرجع السابق ، ص ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ وما بعدها .

على أن مجرد الوجود الجسمانى فى المدينة لا يعنى بالضرورة مشاركة الفرد فى الحياة الحضرية . فالمهاجر قد يعيش فى المدينة ، ولكنه لا ينتمى الى تلك المدينة ، اى لايندمج فيها اجتماعيا فعلا . وقد تكون علاقات المهاجر محدودة الى ابعد حد ، وخاصة فى المراحل الأولى من اقامته فى المدينة . ويرجع هذا فى جانب منه الى عدم ألفته بأسلوب الحياة الحضرى . هذا فضلا عن أن خبرته — أو نقص هذه الخبرة — وزيه ، ولغته ، وعاداته ، يمكن أن تعزله بشدة عن معظم جوانب المجتمع الحضرى الذى يعيش فيه . وما زال ميله الى البحث عن « نظائره » فى المدينة يقيد حركته ويحدده ، ومن شأن هذا أن يؤدى به الى نوع من العزلة الذى يفرضه على نفسه بنفسه ، ويرجع ذلك الى أن كثيرين ممن حوله قد جاءوا من قبائل مختلفة ، أو من مناطق جغرافية مغايرة ، ينتمون الى ثقافات يتخذ هو منها موقفا حذرا بطبيعته . وتؤدى عملية الاختيار والتركز المكانى التى تتم بين الأشخاص الذين ينتمون الى اصول مختلفة ، تؤدى فى بعض الأحيان الى ظهور « أحياء » ، أو محلات يشغلها كلها ، أو معظمها ، الأشخاص القادمون من أقليم معين أو قبيلة بعينها ، أو ينتمون الى تراث ثقافى مشترك وقد ينمو الشعور بالانتماء الى تلك المحلات ويبلغ حدا بعيدا بسبب الاحباط الذى يلقاه الفرد فى تعامله مع المجتمع الخارجى . مما قد ينتهى بسكانها الى خلق حكومة غير رسمية خاصة بهم ، وكذلك محاكم ، وغير ذلك من النظم النوعية المرتبطة بوطنهم الأصلى .

ومع ذلك فان اعادة تنشئة المهاجر الريفى أمر لازم وضرورى لتكيفه مع جوهر أسلوب الحياة الجديد . ويتم ذلك عادة بشكل متفاوت تبعا لسرعة تغير بعض الأساليب الحضرية بالذات . وقد يتقبل المهاجر — مثلا — العلاقات المالية الحديثة ، ولكنه يظل محافظا على الاستعانة برجال الطب القبلى البدائى عند الحاجة . ومن الممكن أن تؤدى الصراعات بين تلك الاختلافات فى مدى تقبل المهاجر للأساليب والعادات الحضرية الى تعرضه للضغوط ، والاضطرابات ، والصراعات النفسية . فمن المتوقع أن يبدى أحد أفراد المجتمع الريفى درجات متفاوتة من تقبل الممارسات والعادات التى تحيط به . ذلك أن الضغوط التى تفرض عليه فى البيئة الريفية ، لكى يتقبل الممارسات السائدة تنتهى به عادة الى الخضوع المطلق لذلك.

المجتمع . اما فى البيئة الحضرية فكل شىء يبدو فعلا غريبا بالنسبة للمهاجر الجديد ، وقد يؤدى به الى الحفاظ على بعض عادات ريفية بعينها .

وقد ينجذب الفرد الذى يعيش فى بيئة حضرية — بعيدا عن القيود والضوابط القروية والقبلية التى كان خاضعا لها — قد ينجذب نحو نظرائه ، اعنى نحو الجماعة القادمة من نفس قبيلته أو من قريته ، ولذلك يمكن أن يعانى — رغما عنه — من ازمة البقاء . فاذا اخذنا الهند — على سبيل المثال — نجد أن المهاجر اذا انجذب نحو الجماعة الآتية من نفس قريته ، فمن المرجح فى تلك الحالة أن تعرف طبقته الاجتماعية المغلقة caste ، ومن ثم فان اى محاولة منه للانتقال الى مركز طبقى جديد يمكن أن تقيده للغاية . ولذلك تتأثر قدرته او امكانياته على تجاوز دوره القديم . ومع ذلك فان الشعور باللامعيارية (*) أو الضياع وسط المجتمع الحضرى هو الذى يدفع بأعداد كبيرة من الأشخاص العزاب غير المرتبطين بأحد أو بشىء والمهاجرين من الريف الى الارتباط بأبناء قراهم السابقة الذين يتميزون عنهم بخبرة أطول بالمجتمع الحضرى .

وقد يبدو ان امام المهاجر من الريف الى المدينة فرصة سانحة للافلات من التدرج الاجتماعى او الطبقى المغلق الموجود فى قريته الأصليه . غير انه يحدث فى اغلب الأحوال ان يستبدل التدرج الريفى المألوف بتدرج حضرى جديد . فالواقع أن ابن القرية الذى يهاجر الى المدينة غالبا ما يجد نفسه وسط موقف خلق فيه التصنيع والتحضر نوعا من التدرج اكبر — اعنى اكثر تعقيدا — من ذلك الذى كان يعيش فى قريته .

الأسرة الحضرية :

تعتبر الأسرة — كما هى الحال دائما — واحدة من اهم النظم الاجتماعية فى المناطق الحضرية فى البلاد النامية . ومن المهم لفهم الأسرة فى مثل هذا السياق أن نبدأ بالاشارة الى بعض السمات الشائعة للأسرة هناك . فمن الأمور الشديدة الاحتمال أن المهاجر بمغادرته لقريته أو بيئته

(*) Anomie

الريفية واتجاهه الى المدينة يهجر بيئة كان يتمتع فيها بالانتماء الوثيق الى أسرة معينة . فاذا واجه المدينة منفردا فى البداية ، فسوف يحس نفسه وسط بيئة غريبة عليه نسبيا . أما اذا هبط المدينة بأسرته فسيجد ايضا أن البيئة الحضرية تمارس تأثيرات فعالة فى الأسرة ، وتؤدى الى احداث بعض التغيرات الدقيقة فيها . ومن الأمور التى تؤثر حتما فى الأسرة كنظام اجتماعى : ضرورة التكيف لظروف جديدة فى البيئة الحضرية ؛ وازدحام المساكن الذى تجده الأسرة فى المدينة ، والتعرض لأسلوب الحياة الحضرى الجديد . ومن شأن هذه المؤثرات بصفة عامة أن تعجل عملية تخلى الناس عن أساليب حياتهم القديمة . من هذا مثلا أن يجد عضو الأسرة نفسه مضطرا تحت تأثير الضغوط المتزايدة الى تكوين أنواع جديدة من الالتزامات التى لم يكن يعرفها من قبل فى القرية . وسيكون لتلك الالتزامات تأثيرها فى أنماط الالتزام الأسرى والقرابى التى كان يألفها فى الماضى .

ويتعرض المهاجر فى المدينة لتناقض مستمر فى رقابة الأسرة على أفرادها . ويزداد ذلك وضوحا بصفة خاصا اذا كان الفرد قد قدم الى المدينة منفردا وليس عضوا فى أسرة . ولكن حتى اذا كانت الأسرة بأكملها أو قطاع كبير منها قد هاجر معا الى المدينة ، فان الفرد يدخل فى ظروف تحمله تدريجيا على الاضطلاع بدور جديد داخل الأسرة . فقد تضطره الظروف الى العمل بعيدا عن باقى أفراد الأسرة ؛ وقد يكون علاقات جديدة من شأنها أن تؤثر فى علاقاته بسائر افراد الأسرة وتحدها .

وقد تنهار الأنماط التقليدية تحت وطأة البيئة الجديدة . من هذا مثلا أن الاجراءات المعتادة لتكوين علاقة الزوج بزوجته يمكن أن تتعدل تعديلا كبيرا فى البيئة الحضرية الجديدة . وقد يكون من نتائج ذلك أن الفرد بدلا من أن يستعين بالطقوس والممارسات المعتادة المرتبطة باختيار شريك الحياة المقبل ، قد يجد نفسه — خاصة اذا كان قد جاء الى المدينة دون أسرته — متورطا فى مجموعة من العلاقات غير الرسمية مع أفراد من الجنس الآخر ليست هى علاقة الزواج العادية التى كان يعرفها فى الماضى ؛ وانما هى مجموعة من المعاشرات ، والواقع أن الفرد بسلوكه هذا لا يعدل فقط من العادات الريفية التى اعتادها ، وانما يمكن أن يورط نفسه فى مجموعة

من العلاقات الجنسية التى قد تكون ذات وطأة شديدة على عاداته الأخلاقية القديمة .

اما النساء بصفة خاصة فيجدن أن البيئة الحضرية تعدل تعديلا بعيد المدى من وضعهن ، وادوارهن واوجه النشاط التى يمارسنها . ابرز هذه التغيرات تلك التغيرات القانونية والاقتصادية فى علاقاتهن مع باقى افراد أسرهن (٢٤) . فقد تجد الزوجة أن القواعد القانونية المختلفة التى تمس النساء فى المدينة يكون لها تأثيرها الهام فى مكانتها القانونية ، من هـذا مثلا أنها قد تصبح قادرة على حيازة ممتلكات حقيقية باسمها الخاص . فضلا عن هذا نجد أنه بينما تعتبر الزوجات والأطفال فى القرية مصدر قوة اقتصـادية بسبب قدرتهم على العمـل فى الحقول ، نجـدهم يمكن أن يصبحوا فى المدينة عبئا اقتصاديا بسبب نفقات اعالتهم . وقد تجد النساء انفسهن — من ناحية أخرى — يتعرضن لتغيرات دقيقة — قـد لاتكون ظاهرة — فى علاقاتهن بأزواجهن ، ويبدو ان الخبرة تشير — مثلا — الى احتمال زيادة النمط الزواجى فى علاقاتهن بأزواجهن ، لا مجرد السير المريح الذى كانت تكفله نظم تكوين الزيجات فى المجتمعات الريفية . ومن الممكن أن تتعرض مسـئولياتهن والتزاماتهن تجـاه أزواجهن لتغيرات جوهرية .

كما قد تجد الأسرة الحضرية أن التزامات الضيافة قد تعدلت بعض الشىء عن النماذج الريفية الأصلية . والمألوف على سبيل المثال أن تبـدى الاسر الحضرية كرم الضيافة لأى واحد من ابناء احدى الاسر القريبه فى القرية لدى وصوله حديثا الى المدينة بحثا عن مستقر له فيها . والمتوقع ان يجد له اقاربه الذين سبقوه الى المدينة مكانا له فى نطاق الأسرة او يقدموا له على الاقل الطعام والمسكن على أساس مؤقت او لمدة طويلة لحين استقرار أحواله . وليس لمثل هذه الضيافة الاجبارية حدود قانونية ، مما يترتب عليه احتمال أن تمتد اقامة كل قادم جديد من القرية الى المدينة

---

(٢٤) Meran McCullech, «Survery of Recent and Current Field Studies on the Social Effects of Economic Development in Inter — Tropical Africa», in UNESCO, Africa South of the Sahara, PP. 216 — 19.

داخل هذا النسق لفترات طويلة من الزمن . ويعتبر هذا الالتزام بالاستضافة — من بعض نواحيه — غير جديد على ابن القرية القديم الذى تعود المشاركة فى تحمل أبناء القرية . وقد ينطوى هذا الالتزام — من ناحية اخرى — على علاقة لازمة كل اللزوم للبقاء والاستمرار فى البيئة الحضرية الجديدة . وقد يكون دخل الأسرة الحضرية من الانخفاض بحيث يكون من اللازم استكمال هذا الدخل من خلال اى اسهامات ، مهما تكن ضآلتها ، يقدمها المهاجرون حديثو الوصول من الريف الى المدينة . فهذه المعاملة التى توازى الايواء والاطعام — سواء بمقابل او بدون مقابل — تعتبر مهمة شاقة فى البيئة الحضرية حيث لا تعنى ظروف المعيشة بصفة عامة بأكثر من حجرة واحدة للأسرة نفسها ، ناهيك بالأشخاص الاضافيين .

ونظرا لما ينطوى عليه ذلك من مزايا اقتصادية ، نجد من الشائع تماما أن تأوى الأسرة بعض الغرباء وتقدم لهم الاقامة الكاملة (اى السكن والطعام ، أو السكن فقط ، فيشاركوا الأسرة حياتها ومصيرها . وقد لايكون هؤلاء الأشخاص مهاجرين من نفس المنطقة أو نفس القرية التى جاءت منها الأسرة ، فيدخلون بذلك فى صراعات محتملة راجعة الى الاختلافات فى البيئة ، والعادات الغذائية ، وما الى ذلك من أمور .

ومن الشائع أن يرثى دارسو الحياة الأسرية فى مدن البلاد النامية لتأثير الحضرية فى الأوضاع الأسرية التقليدية . وقد زعموا بصفة عامة وجود انحطاط يكاد يكون حتميا فى الأسرة فى ظل الظروف الحضرية ، وخاصة بالقياس الى الأوضاع الأسرية الريفية ، ولو أن هناك بعض الشواهد التى تشير الى أن انتقال الحياة الأسرية من المناطق الريفية الى الحضرية لا يؤدى بالضرورة الى الانهيار (٢٥) .

ويبدو أن هناك نوعا من الاتفاق على أن الطفل هو أكثر افراد الأسرة تعرضا لأعظم التأثيرات نتيجة لما يطرأ على حياة الأسرة من اضطرابات . ويرجع هذا فى جانب منه الى اضطراره الى الحياة فى بيئة غير ملائمة لطفولة سعيدة وقيام علاقة وثيقة . ولكن يبدو أن هذا الوضع يرجع

---

(٢٥) الامم المتحدة ، الموقف الاجتماعى العالمى : ١٩٥٧ ص ١٣٧ وما بعدها .

فى اساسه الى ان كلا من الأب والأم قد يضطران الى التغيب عن البيت طوال النهار ليكسبا من المال مايكفى لاعالة الأسرة ، ويؤدى هذا تلقائيا الى ترك الطفل دون اشراف أو رعاية ، كما يضطره فى كثير من الأحيان الى البحث عن سبل كسب المال مما يمكن الاستعانة به فى دعم دخل الأسرة (٢٦).

البنـــاء الطبقى والانتماء الجماعى

يبدو ان تكون الطبقات الاجتماعية بين السكان الحضريين الوطنيين يختلف اختلافا بعيـــدا من بلد نام لآخر . وهناك عديد من العوامل التى يمكن أن تؤثر فى مدى التـــدرج الطبقى وقيام الطبقـــات . من هـــذا مثلا يذكر ميران مـــاك كلوخ Meran McCulloch ـــ فى تلخيصـــه لمجموعة دراسات عن افريقية جنوب الصحراء الكبرى ـــ بعض العوامل التى تعوق تكون طبقات اجتماعية فى المناطق الحضرية (٢٧) . وقد نبه الى أن سكن طبقة فى منطقة منفصلة ليس الأمر الممكن . ونلاحظ فضلا عن هذا ، أن الالتزامات والمسئوليات الأسرية التى تلقى على عاتق السكان الحضريين الأوفر حظا من النجاح تجاه المهاجرين الجدد الى المدينة يحتمل أن تؤدى الى انهياره بسبب ما قد يكون هناك من اختلافات بين المهاجرين الجدد والأشخاص القدامى فى المدينة الذين صادفوا قدر أكبر من النجاح . فيوضع هؤلاء المهاجرون فى علاقة التزام تجاه بعضهم بعضا تتمتع بنفس القـــدر من الأهمية . ومن العوامل الاخرى التى أشار اليها ماك كلوخ فى تلخيصه ما ذكره باركر Parker بشأن التعليم الذى يمكن أن يخلق لدى الفرد ـــ اذا كان تعليما موفقا وعاليا ـــ احتياجات الى خدمات ومنح تفوق امكانياته . لذلك قد يربط الفرد نفسه ثقافيا بطبقة معينة ، ولكنه ينتمى اقتصاديا

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢٧) أنظر ماك كلوخ ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ وما بعدها .

وانظر كذلك راى باركر ، ص ١٢٧ وما بعدها .

ومن الدراسات النموذجية للمجتمع الحضرى فى اجـــزاء مختلفة من افريقيا وغـــيرها تلك التى أعدهـــا :

Leo Kuper, Michael Banton, Arthur T. Porter, Ions Acquah Philip Mayyer, Hilston Watts, Ronaté Davies, A. W. Southall, and P.C.W. Gutkind, Barnington Kaye, and Theodore Caplow.

الى طبقة اخرى . كما لوحظ ايضا ان النساء يكن اكثر ولاء واكثر مراعاة للعادات القبلية من الرجال . فيجعلن انتقال ازواجهن من طبقة الى اخرى امرا صعبا . كذلك يشير ماك كلوخ الى عامل آخر لاحظه باركر . وهـو بطء التباين الاقتصادى بين السكان الحضريين الوطنيين فى البلاد النامية . ويؤثر هذا حتما فى قدرة الافراد على اظهار الممتلكات التى يمكن ابداؤهـا ظاهريا وغير ذلك من المعايير التى قد تؤثر بدورها فى الحراك من طبقة الى اخرى . ويواصل ماك كلوخ تلخيص كثير من الدراسات مشيرا الى « الهوة الموجودة بين الأوروبيين والافريقيين التى تفوق الاختلافات الاقتصادية داخل المجتمع الافريقى نفسـه » .

على أن هذا الظرف ليس مقصورا على افريقية وحدها . فمن الجوانب المعقدة للتغيرات التى تطرأ على الوضع الطبقى ، او على المكانة فى المناطق الحضرية الثبات المؤقت — اذا لم يكن المستمر — للسمات الطبقية الفارقة القديمة والجديدة .

وقد يختلف التدرج الطبقى الى حد ما تبعا لحجم المدينة وعمرها ، وطول اقامة المهاجرين ، وما الى ذلك . ويبدو أن التباين الطبقى فى مدن ساحل افريقية الغربى ، وفى مدن افريقية الوسطى ، اقل منه فى مصر وبعض المدن الافريقية الأخرى الواقعة على حوض البحر المتوسط (*) .

أما عن الانتماء الجماعى والتنظيم فى المناطق الحضرية فى البلاد النامية فيجب ان يناقش فى سياق الحقيقة التى مؤداها ان الأسرة فى المناطق الريفية تتحكم فى الجانب الأكبر من حياة الفرد . اى أن العلاقات التى تربط — الفرد بأسرته تسيطر على حياته كلها . أما فى المدينة فنلاحظ بوضوح — على العكس من هذا — أن توحد الفرد بالجماعة يتحتم فى قطاعات متزايدة باستمرار من حياة الشخص ويعتبر الى حد بعيد بديلا للنمط الريفى من السيطرة الأسرية .

(*) استعرض جمال حمدان التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على ارضية مدينة القاهرة فى مقدمته لكتاب ديزموند ستيورات الذى سبقت الاشـارة اليه ، ص ٦٣ — ٧٢ . (المترجم)

وقد يعرض المهاجر نفسه فى بحثه عمن سبقوه فى الهجرة من القرية وفى اعتماده عليهم اعتمادا كبيرا فى شق طريقه فى المجتمع الحضرى قد يعرض نفسه لموقف يمارس فيه عليه ابناء قريته هؤلاء نوعا من التحكم الاساسى فى حياته كلها . فقد لا ينقلون اليه الا جوانب معينة من المعلومات التى يحتاج اليها المهاجر الجديد ، على نحو يدع المهاجرين الذين استقروا فعلا فى وضع يحصلون منه على فرص افضل . وقد يبلغ اعتماده الأساسى على سابقيه فى بعض الحالات حدا متطرفا ، كما نلاحظ مثلا بالنسبة لمهاجر « البانتو » الى احدى مدن جنوب افريقية الذى لا يستطيع — اذا اقترن « بشلة » معينة — ان يتصل بسهولة بأفراد لا ينتمون الى تلك « الشلة » . وقد يصل الأمر فى ظل تلك الظروف الى حد انه لا يستطيع أن يشق طريقه الا عن طريق الارتباط بجماعة اكبر واقدم . وليس هذا الموقف مقصورا على البلاد النامية وحدها ، اذ نجد احد سكان الجبال البيض الجنوبيين فى أمريكا عندما يهاجر الى شيكاغو مثلا ، فانه يجد نفسه أيسر تقبلا لدى رفاقه السابقين الذين سبقوه فى الهجرة الى شيكاغو ويستعملون نفس اللغة القديمة .

ومن المرجح ان ينطوى الميل الى الانتماء والتمسك بالانتماء الى الجماعة الأصلية على زرع بعض جوانب الثقافة الريفية فى البيئة الحضرية ، مما يخلق فى النهاية مجتمعا « متشرنقا » خاصا داخل مجتمع آخر . وربما يتم ذلك جزئيا بغرض الحماية فى صورة عزل المهاجرين عن الصراعات والضغوط الثقافية الموجودة فى البيئة الجديدة . كما يجب أن يؤخذ كذلك فى الاعتبار اننا لانجد ان كل الأفراد المهاجرين الى منطقة حضرية معينة ينتمون الى نفس الأصل سواء من حيث القبيلة او المنطقة الجغرافية . وقد يسكن نفس المنطقة الحضرية ابناء مجموعات سكانية مختلفة — وفى بعض الأحيان متحاربة او متعادية ، ولا ينتظر ان يتناسوا كل تلك الخلافات لمجرد كونهم هاجروا الى نفس المدينة ، ونقل تلك العداوات الى البيئة الحضرية قد يكون احد الأسباب الأخرى التى تفسر لنا ميل المهاجر الى ربط نفسه بمن سبقوه الى الهجرة من ابناء جماعته .

وقد يظهر نوع من « التكوين القبلى المتميز » (*) من النـــوع الذى أشار اليه جان روش Jean Rouch على انه موجود فى كوماسى Kumasi واكرا كذلك يشير داريل فورد الى « التقاليد الحربية الوطنية التى ترجمت الى عمليات السيطرة على مواقع السوق واحتكارات المهن وخطوط التجارة » والتى حللها فى بعض المواقف فى ضوء الانتماءات القبلية للمهاجرين الى المناطق الحضرية (٢٨) .

على أن المهاجر الجديد لا ينجذب فقط الى أولئك الذين سبقوه الى الهجرة . ذلك أن « البيئة الحضرية » نفسها تتيح سبلا وفرصا جـــديدة لقيام أنواع جديدة من الارتباطات . فيميل الكثيرون الى المشاركة فى نقابة ، أو حزب سياسى على مستوى متواضع كل التواضع ، أو جماعاتتسليف(**) وما شابه ذلك من المنظمات . وهناك تفاوت هائل فى درجة الارتباط . وقد تكون أكثر التجمعات اللا رسمية هى أكثرها ارضاء وأقربها الى القادم الجديد للمدينة . وقد لاتكون منظمة بالضرورة بمعنى أن يكون لها مواثيق وواجبـــات ، وقواعد ، وتعليمـــات ، ولكنهـــا يمكن أن تكـــون فعـــالة كل الفاعليـــة عـــلى أســـــاس منظمات المســـاعدة المتبادلة سواء المؤقتة او الدائمة . ولاشك أن النقص الشديد فى الدراية بأسباب القـــــوة والاقتراب منها يدفع المهاجر الى الانتماء لجماعات المساعدة المتبادلة هذه . وكما قال ريتشارد مورس Richard M. Morse فى هذا الصدد : « ان الهوة بين الابنية البيروقراطية الحضرية والخلفية الزراعية للمهاجر من الضخامة بحيث لايتوقع حدوث توافق بينها الا بعد أن يكتل المهاجرون انفسهم فى صورة اتحادات عارضة تكون لهذا الغرض بالذات ، وتخضع بقدر الامكان لقيادة فاهمة » (٢٩) .

(*) Super — tribalization.

(٢٨) داريل فورد : « مسح تمهيدى » . Daryll Ford, «Introctory Survey» فى كتاب اليونسكو : أفريقيا جنوب الصحراء ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(**) جمعيات التسليف عبارة عن جمعيات تعاونية تمنح أعضاءها قروضا صـــغيرة بفائـــدة ضـــئيلة . (المترجم)

«Latin American Cities : Aspects of Function and Structure», reprinted in J. Friedmann and William Alonso, eds. Regional Planning and Development ; A Reader (Cambridge. Mass. : Massachusetts institute of Technology Press. 1964) P. 378, originally Published in «Comparative Studies on Society and History, 4 (July 1962).

النظم الاجتماعية الحضرية فى البلاد النامية

لعل افضل سبيل لفهم النمط الخاص للنظم الاجتماعية القائم فى مدن البلاد النامية أن نشير الى نماذج معينة من تلك النظم . ولن نعمد بالطبع الى استعراض جميع النظم فيما يلى ، وانما سنوجه اهتماما خاصا — بقصد التوضيح — لكل من الدين ، والتعليم ، والحكومة . ويجب أن يكون مفهوما طوال المناقشة أن التغيرات المشار اليها والتى طرأت على النظام قد لا تكون راجعة الى التحضر فحسب ، وانما هى تأثرت كذلك بالتصنيع ، والاخذ بالأساليب البيروقراطية ، وغير ذلك من السمات المصاحبة للتحديث .

الدين :

تختلف علاقة ساكن الحضر بدينه تبعا لما اذا كانت ممارساته الدينية تنطوى على سلوك خاص أو جماعى . فبالنسبة لجنوب شرق شرق آسيا على سبيل المثال نجد ان عبادات الهندوكى أو البوذى يمكن أن تمارس فرديا اساسا سواء داخل المعبد او خارجه . وفى مثل هذه الحالات يكون الضريح الدينى أو المعبد هو البؤرة المستقرة الوحيدة تقريبا فى حياة ساكن الحضر . أما فى المدن الاسلامية فان المسجد قد لا يمثل مجرد مكان للعبادة فحسب ، وانما يكون المكان الوحيد الذى يتوافر فيه الهدوء الحقيقى ، المكان الوحيد الذى يتسم بالرحابة والسعة حيث يمكن الجلوس دون أن يضيق الانسان بالحشود البشرية الضخمة . فالانسان الحضرى الذى يمارس شعائر دينه منفردا أو مستقلا يمكن أن يجد العديد من دور العبادة المريحة المناسبة . وسيجد المسلم أن ممارسة الدين فى المدينة لا يختلف اختلافا جوهريا عن ممارسته فى الريف مادام أمرا فرديا فى الجانب الاكبر منه ، ولكنه قد يرى أن يربط نفسه بجماعة كبيرة من المترددين على المسجد .

أما حيث ترتبط ممارسة الدين بالمشاركة الجماعية ، كما هو الشأن فى مدن افريقية الغربية ، فان فرص أداء الشعائر الدينية قد لا تتوافر بنفس القدر الذى كانت متاحة به فى الريف . وكثيرا ما يتيح ذلك للمهاجر فرصة العودة الى قريته فى المناسبات الشعائرية الجماعية . ثم ان هناك بعض العادات الدينية والاجتماعية التى لا يمكن — نسبيا — ممارستها فى المدينة . فالمدينة لاتصلح مثلا لممارسة طقس الترانسكاى Transkei (فى جنو بافريقية) حيث يتحتم على الشاب أن يتجول ثلاثين يوما فى البرية وحده لا يحمل سوى عصا وجلد يتغطى به ، وذلك قبل السماح له باكتساب عضوية المجتمع .

وعلى الرغم من أن الممارسات الدينية وغيرها من أوجه النشـــاط المرتبطة بها قد ترجع الى اصول ريفية ، الا ان الكثير منها يمكن أن يعيش داخل البيئة الحضرية الجديدة . ويتضح لنا بقاء الشعوذة — على سبيل المثال — فى أسواق مدينتى كانو Kano وايبادان حيث يستطيع الفرد شراء حاجاته من جلود الحيوانات ، والريش ، واحشاء الحيوانات ، والعظام،وغيرها من اجزاء الحيوان اللازمة لتحضير العلاجات أو الوصفات الطبية الشعبية، مما يؤكد لنا أن الانسان لايتخلى عن كل الممارسات الريفية عندما يهـاجر الى منطقة حضرية .

ومع ذلك فان العلمانية توجه الى الدين طعنات لا يمكن انكارها . حقيقة أن الأشكال القديمة يمكن أن تبقى ، ولكن الأكثر احتمالا أن تظهر اشـــكال وممارســـات جديدة . وقد يعجز ســـاكن المدينة عن ممارســـة العادات التى كان مرتبطا بها فى الماضى ، أو يمكن أن تؤدى الصعوبات التى تواجهه فى اثناء ذلك الى مضاعفة الضغوط والتوترات بين الممارسة القديمة والجديدة ، وبين البيئة القديمة والجديدة (*) .

(*) لم ينفذ المؤلف فى تحليله لاثر التحضر فى النظام الدينى فى المدينة الى بيان الاثر الحقيقى لضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية فى ظل الحياة الحضرية مما يبدو جليا فى الفرق بين الروح الدينية فى الريف والحضر ، أو أن شئت بين التمسك بالشعائر الدينية والحـــرص على اظهاره هذا التمسك فى الريف ، وبين عدم التمسك وعدم الحـــرص على الاظهـــار فى المدينة ، حيث اختفت الى حد بعيد آثار علاقات الجوار ، والعلاقات الاسرية كعوامل ضابطة .

قارن كذلك ، عاطف غيث ، القرية المتغيرة ، خاصة ص ١٢١ وما بعدها .

التعـــليم :

غالبا ما يتسم التعليم فى المدينة بنقص فى المعلمين ، والأبنية ، والكتب ، وغيرها من التسهيلات اللازمة . وهناك حاجة خاصة الى صفات التدريب المهنى التى لاتتوافر على العموم فى البيئة الحضرية . وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية والحيوية بسبب حاجة العامل الزراعى الى تحـويل نفسه الى انسان قادر على الانتفاع بمهاراته الأصلية فى المهن الصناعية وغيرها من أنواع المهن الحضرية الأخرى .

وحتى حيثما توافرت الخدمات التعليمية الحضرية بكميات محدودة ، فمن الراجح أن تكون ايسر منالا لساكن المدينة المستقر اكثر منها للقادمين الجدد الى المدينة . كما قد لا يكون المهاجر الجديد على دراية بالاساليب التى يستطيع بها الاستفادة من الخدمات التعليمية المتاحة .

وهناك ظاهرة شاذة ترتبط بانخفاض المستوى التعليمى لمجموع السكان الحضريين وهى الاتجاه الى حدوث تضخم فى عدد خريجى الجامعة العاطلين . ونلاحظ أن البلاد النامية الصغيرة لا تعانى عادة من هذه المشكلة ، اما البلاد الكبرى — كالهند مثلا — فقد تجد نفسها فى وضع تعانى فيه من زيـادة عدد الجامعيين الذين لايجدون فرصة الانتفاع بمهاراتهـم فى الوظـائف الوسطى ، وذلك بسبب الظروف الراهنة للنمو الاقتصادى والحكومى . وقد يضطر خريج الجامعة فى الهند الى الانتقال من مدينة الى أخرى يعيش هنا وهناك مع أقاربه فى محاولة يائسة للعثور على وظيفة يمكن أن يستخدم فيها ما تعلمه فى الجامعة . وربما كان الزمن كفيلا بحل مثل هذه المشكلة ، ولكن الهند تعانى حاليا من فائض خريجى الجامعة بالقياس الى الفرص المتاحة فى المجتمع الهندى (*) .

(*) واضح مدى الشبه الشـديد بين هـذا الوضع فى الهند والوضـع عندنا فى جمهورية مصر العربية . وقد احتدمت المشكلة عندنا منذ اكثر من خمس سنوات . غـير ان الدولة وعيا منها بالتزاماتها ازاء قطاعات المجتمع المختلفة لم تترك هذه الفئة من ابنائها =

وعلى النقيض تماما من هذا الوضع ما نجده فى البلاد النامية الصغيرة التى تعانى من نقص عدد الجامعيين فيها . ولذلك نجد نسبتهم أقل مما يجب فى الصناعة ، والحكومة ، وفى التجارة . ولاشك ان هذا النقص فى الجامعيين يمكن أن يقلل من كفاية وفاعليـــة أداء المنظمـــات البيروقراطية الحكومية والاقتصادية لعملها .وترجع ظاهرة التضخم فى جانب منها الى فشل البلاد النامية — حتى الان — فى توفير الظائف الوسطى ، كما ترجع فى جانب آخر الى فشل الجامعات فى اعداد الأفراد الاعداد المناسب لشـــغل هذه الوظائف . فحيثما يوجد نقص فى العاملين فان الموقف لايعكس نقصا فى عدد الأشخاص المؤهلين ؛ وانما يدل على نقص الأشخاص المؤهلين تأهيلا سليما مناســـبا . ٥

الحـــكومة :

تتمتع المؤسسات الحكومية بأهمية خاصة فى مدن البـــلاد النـــامية . ونلاحظ بصفة عامة أن البلاد النامية تفتقر الى تقاليد عـــامة فى مجـــال المشاركة الجماهيرية فى عملية الحكم . ففى الحكم القبلى — على ســـبيل المثال — تنبع السلطة من الرؤساء الذين يرثون منصبهم هذا ؛ ولا تلقى هذه السلطة اى معارضة على العموم . ثم كانت الادارة من الخـــارج خلال فترات الاستعمار نوعا من التنظيم الحكومى الذى لم يسمح بوجود قدر كبير من مساهمة الجمهور العام . ونجد علاوة على هذا أن المهاجرين الريفيين السابقين — الذين يكونون القسط الأعظم من سكان المـــدن — على غير الفة بأشكال الحكم الحضرية . ومن شأن عدم الالفة بأشكال الحكم الحضرية علاوة على نقل بعض أساليب السلوك القبلية الى البيئة

= فريسة التعطل ، فأصبحت اليوم تلتزم بتشغيلهم جميعا . وأن كان ذلك قد ادى الى حدوث بعض المشكلات فى بعض مجالات العمل الادارى والحكومى ، حيث زاد عـــدد العـــاملين على عدد الاعمال . علاوة على نقص الموظفين المتبين من المستويات الدنيا ، وقد ادى ذلك فى حالات غير قليلة الى تقليل كفاية الاداء الوظيفى بشكل خطير .

(المترجم)

الحضرية أن يقلل بشكل خطر من امكانيات مشاركة الجمهور فى تسيير دفة الحكم فى المدينة .

أما الحكومة الحضرية نفسها فتتعرض لبعض الضغوط الخطيرة اذ تطالب بصفة عامة باشباع احتياجات كثيرة من الخدمات يفوق ما تستطيع توفيره . كما ان هناك حشودا ضخمة من المهاجرين الذين ينتمون الى قبائل مختلفة — ليست جميعها منسجمة بعضها مع بعض — تستوجب الاشراف والتنظيم على نحو يدرأ عن المدينة خطر المشكلات الداخلية . ثم ان الحرمان النسبى الذى يعيش فيه غالبية سكان الحضر يحمل فى ثناياه تهديدات من جانب القاده الجدد بين الغاضبين ، وضغوطا من جانب المعدمين الذين لا يستطيعون الحفاظ على مستوى التطلعات العالى الذى جاءوا به من الريف . على أن الأمر لا يقتصر على مطالب الجمهور العام فحسب بل نجد أن بعض القوى الجديدة فى المجتمع الحضرى — كرجال الصناعة — تمارس ضغوطا من أجل تحقيق صالحها الخاص . وتعانى الحكومات فى البلاد النامية من ضعف الامكانيات المالية بصفة عامة ولا تستطيع أن تواجه جميع المشكلات التى تعانى منها . فالموقف على هذا النحو يمثل دائرة مفرغة ، اذ أن عدم القدرة — من حيث المال والمعدات ، وتحديد الاتجاه — على مواجهة مشكلة الصحة العامة مثلا يمكن أن يخلق مواقف يرتفع فيها مستوى الاصابه بالمرض ، مما يزيد بدوره من مسئوليات الحكومة فى مجال الرعاية الطبية وهكذا . ولا تستطيع الغالبية العظمى من سكان الحضر ان تدخل للحكومة المحلية عائدات ضرائب مرتفعة بالقدر الذى يمكن ان يسمح لها بالاضطلاع بواجباتها على نحو فعال . كالاشراف على نظام المجارى فى المدينة مثلا . ويبدو ان هناك هوة حتمية متزايدة دائما تقريبا بين الموارد المتاحة لادارة المدينة وبين الواجبات الملقاة على عاتقها .

وفى ظل تلك الظروف قد تجد البلديات فى بعض الأحيان ما يغريها — وخاصة تلك البلديات التى تسكن مبانى حكومية قومية — بالاستغراق فى نوع آخر من المصروفات التى تبدو غير متسقة على الاطلاق مع الاحتياجات

التى لا تستطيع الوفاء بها . من هذا مثلا أن توجه الاعتمادات المالية بطريقة تبدو مسرفة لانشاء مبان عامة لأغراض مظهرية ، ربما تعكس احساسا بأن ذلك قد يرمز لظهور تلك البلاد النامية الجديدة . فنجد أن مبانى مثل قصور الرياسة ، الدواوين التى فى حجم ناطحات السحاب وغيرها من المنشآت التى لا تخدم سوى نسبة ضئيلة جدا من السكان ، هذه المبانى قد تفضل على الانفاق على نظام المجارى فى المدينة . فتجاهل احتياجات ملايين السكان الحضريين من أجل التأثير فى أبناء البلد أو فى العالم الخارجى بواسطة هذه المبانى المظهرية يعتبر من أبرز الصعوبات التى تعترض المواجهة الصحيحة للمشكلات الحضرية .

ويبدو بصفة عامة أن الجماهير العريضة من سكان الحضر لا يستطيعون الا ممارسة تأثير ضئيل كل الضآلة على حل مشكلاتهم . وقد لا تكون تحت أيديهم سبل جاهزة للتعبير عن شكواهم . هذا فضلا عن انه قد يكون هناك شك متبادل بين السكان والقادة السياسيين . وقد يرجع هذا الشك فى جانب منه الى عدم القدرة على التواصل ، وبخاصة بالنسبة لتحديد الأهداف المشتركة . أو ربما يعكس هذا الشك نقصا فى الخبرات الخاصة بتمكين السكان من وسائل التأثير فى عملية اتخاذ القرارات الخاصة بشئون المدينة فى المستقبل . وهناك طائفة من العوامل التى يمكن أن تدفع ساكن المدينة نحو الجماعات الاختيارية بأنواعها التى أشرنا اليها من قبل . ونذكر من بين هذه العوامل : الاحساس بالبون الشاسع والريبة الكامنة بين المواطن الحضرى العادى والجهاز البيروقراطى ، والثغرات الموجودة فى نظام الاتصال ، والهوة الموجودة بين الوعود التى تمنح والانجاز الذى يتم فعلا فى سبيل حل المشكلات أو التخفيف منها ، وعجز المواطن الحضرى عن ايجاد السبيل الذى يستطيع من خلاله تغيير حظه ونصيبه فى الحياة . على الأقل ايا من الاحتياجات البسيطة كتأمين الفرد ازاء النفقات الكبيرة المرتبطة بحالات الوفاة ، والزواج ، ونحو ذلك من المناسبات الخاصة ، وكذلك الأزمات الشخصية .

ومن شأن عدم احساس الرجل الحضرى العادى بالأمان على وظيفته بصفة عامة نجد أنه — برغم فكرته الغامضة عن الحكومة — يعتبر الوظيفة الحكومية من اضمن السبل لتحقيق الأمان الذى ينشده . ولذلك يبذل كثير من سكان المدينة كل ما فى وسعهم لاستخدام اى سبل متاحة — بما فى ذلك الروابط العائلية والالتزامات القبلية من جماعة لأخرى — للحصول على وظيفة حكومية .

ولذلك يجب على الحكومة بالضرورة أن تكون على علاقة متناقضة بعملائها من سكان الحضر . وكما لاحظ لوسيان باى Lucian W. Pye

« ان احضار أعداد كبيرة من الناس الى الحياة الحضرية يعنى دائما اشراكهم فى شكل ما من أشكال السياسة ... (هل ستكون مشاركة بناءة أم هدامة اجتماعيا ؟) . فاذا أمكن تنفيذ هذه العملية دون حدوث اغتراب أو عواقب مدمرة فان الدولة يمكن أن تستفيد استفادة سريعة بزيادة عدد مواطنيها . أما اذا أفسد العملية التوتر والصراع ، فمن الممكن أن تظل بعض الندوب الدائمة على الدولة ، وتصبح مصدرا مستمرا للمتاعب فى وجه السير الفعال للعملية السياسية » (٣٠) .

---

(٣٠) لوسيان باى : « الدلالات السياسية للتحضر وعملية النمو » .

The Political implications of Urbanization and the Development Process.

بحث مقدم لمؤتمر الامم المتحدة لتطبيق العلوم والتكنولوجيا لخير الدول المتخلفة ، جنيف ، ١٩٦٣ ، ضمن بحوث الولايات المتحدة . (واشنطون د.س.ن . ، مكتب مطبوعات حكومة الولايات المتحدة ، ١٩٦٢) ، ص ٩٦ .

ويلاحظ باى في نفس البحث أنه : « اذا جاء الناس المنعزلون الى المدن بحثا وراء حياة افضل ، ولم يستطيعوا أن يجدوا حتى ارضاء العمل ، فمن المحتمل أن يتحولوا بمرور الوقت الى السلوك اللا اجتماعى بشكل متزايد من أجل الوصول الى الاحساس بالانتماء ، ويصبحون مرة أخرى أعضاء فى مجتمع محلى » . (ص ٨٥) .

بل ان أجهزة الحكم الحضرية فى البلاد المتقدمة لم تستطع أن تحل تماما مشكلة اشراك سكانها فى عملية الحكم دون أن تواجه أخطارا مماثلة .

اعتبـــارات عامـــة

ربما استطعنا فيما يلى أن نقدم صورة موجزة لساكن المدينة فى البلاد النامية :

« غالبا ما تحافظ كثير من المدن فى آسيا والشرق الأقصى — على خلاف المدن الغربية — على بعض الخصائص الأساسية للقرية ، أو لمجموعة القرى . وهى تتميز على العموم بوجود منطقتين متميزتين تعيشان معا هما :

١ — منطقة ذات طراز غربى .

٢ — منطقة ذات طراز وطنى تتكون من مجموعة من القرى . وعليه فان السواد الأعظم من سكان كثير من المدن الآسيوية يعيشون فى مجموعات قرى ويحافظون على بعض الخصائص الشعبية (أوالفولك) هذا على الرغم من أن صفوة محدودة العدد من السكان المحليين تبدو فى المدن الآســيوية متميزة بنفس خصائص سكان الحضر فى الغرب . أما تحديد سمات سكان الحضر بالاستعانة بالثنائيات المشهورة مثل folk-urban « الفولك والحضر » أو « الريف والحضر » ، أو « المجتمع المحلى والمجتمع » فلا تصدق على السواد الأعظم من سكان كثير من المدن الآسيوية » (٣١) .

فلابد من تغيير كل تلك المفاهيم على النحو المشار اليه كى تصــبح صالحة للتطبيق على المدن فى البلاد النامية .

---

(٣١) اليونسكو ، آسيا والشرق الاقصى ، ص ٢٤ — ٢٥ .

الرواسب الريفية :

ظاهرة الرواسب الريفيـــة فى المنـــاطق الحضرية ظاهرة شائعة فى البلاد النامية . والواقع انه قد تكون تلك الرواسب من الممارسات الريفية هى سبب عزل المهاجر الجديد عن بيئته الجديدة حتى يألفها . ويترتب على وجودها أن تنطوى الهجرة من الريف الى الحضر على قدر كبير من الصدمة الثقافية على نحو ما كان يعتقد فى الماضى ، وترتبط الصورة الثقافية بالانتقال من اقتصاد الاعاشة (أو الاستهلاك المباشر) الى الاقتصاد النقدى ، ومن الدور فى الطبقة المغلقة أو من المكانة الطبقية الى العمل على الآلات وما يرتبط بذلك من تغير فى المكانة نتيجة ما يحصله الفرد من دخل ، وربما التغير من عامل زراعى ذى مكانة عالية الى عامل حضرى منخفض المكانة . وقد يخلق هذا كله نوعا من الضيق أو اللامبالاة نتيجة الاحباطات المرتبطة بذلك (٣٢) .

فالصراعات الثقافية أمر حتمى لا مناص منه . ونجد فى Rangoon رانجون على سبيل المثال — أن أمام كل بيت مقاما صغيرا انشىء لسكنى الروح الحارس لذلك البيت . فمتابعة تلك العادة الريفية فى المدينة ليس بالأمر الصعب مادام من الممكن تحديد كل مسكن تحديدا مستقلا منفصـــلا عن المساكن الأخرى . ولكن لنفرض أن هناك بضع مئات من العائلات التى قد تشترك فى عشرات من الأرواح الحارسة المختلفة ، وتعيش فى مشروع

---

(٣٢) مالنجرو : « ملاحظات حول توجيه البحوث السوسيولوجية فى المراكز الحضرية الافريقية ، مع اشارة الى الوضع فى الكونغو البلجيكى .

G. Malengreau «Observations on the Orientation of Sociological Researches in African Urban Centers, with Reference to the Situation in the Belgian Congo.

بحث من كتاب اليونسكو : افريقية جنوب الصحراء ، ص ٦٢٤ — ٦٣٨ ، ونورد فى المرجع السابق ، ص ٤٦ .

أسكان حكومى . فأى روح من بينها سوف يختار لحماية المبنى ؟ وأى روح سوف تسكن بيت الارواح ؟ .

وقد يحدث خليط عجيب من المفاهيم الجديدة والمترسبة فى الأسرة الحضرية فى البلاد النامية ، اذ تنقل بعض الأفكار نقلا من البيئة الريفية ، مثل نمط العبادة والتقديس . ومن ناحية اخرى يمكن أن تنمو علاقات جديدة بسرعة كبيرة . ولنأخذ موضوع سلطة الأسرة مثالا على ذلك . هل يفقد رب الأسرة مكانته لمجرد أن زوجته أصبحت قادرة على العمل ، وبالتـــانى المشاركة فى الانفاق على الأسرة ؟ أو ترى ماذا سيكون تأثير سلطة الطبقة المغلقة أو سلطة القبيلة على المهاجر حديثا الى الحضر اذا ما تجنب الارتباط بمهاجرين سابقين له من نفس قريته ؟ ان سير حياة المهاجر بأكملة قـــد يتغير تبعا لنوع القرار الذى يتخذه فى هذا الصدد . وهذا امر على جانب كبير من الدلالة اذا اخذنا الخبرة الواقعية فى اعتبارنا ، وهى أن المهاجر نادرا ما يقرر عدم ربط نفسه بمن سبقوه الى الهجرة الى المدينة من ابناء قريته .

بين التوقـــع والانجـــاز :

يعتبر التعايش بين انساق المكانة القديمة والجديدة — على نحـــو ما اشرنا — واحدا من أهم السمات المميزة للحياة فى المجتمع الحضرى . فتراث انساق المكانة الريفية يعيش جنبا الى جنب مع انساق المكانة التى خلقها المجتمع الحضرى الجديد ، وغالبا ما تكون الفرصة المتاحة للفـــرد لانجاز ما يتفق وطموحه أمرا عزيز المنال ، فاحتمال الوصول الى النجاح ضئيل . فهناك حد معين حتى بالنسبة لعدد عربات الريكشـــا التى يمكن دفعها ، أو جذبها أو قيادتها بالبدالات . فالمهارات الريفية لا يمكن تسويقها فى المدينة الكبيرة الا بشكل محدود فقط . والملاحظ ان هناك فى جميع الأحوال تقريبا فائضا فى الأيدى العاملة فى المجالات التى يكون القادم الجديد مـــؤهلا لها . ولذلك تحدث هوة واسعة بين قدرة الفرد والفرصة المتاحة له لتحقيق طموحاته فى المدينة .

بدائـــل للتحضر الحـــدى :

ربما كان ابرز سمات السكان الحضريين هو مستوى التحضر الحدى للحياة التى يتعرضون لها ، والذى لا يستطيعون تجاوزه حتى وان طالت بهم الحياة فى المدينة . وقد يكون الانخفاض الفعلى فى مستوى التحضر الحدى شديد الشبه بمستوى المعيشة الزراعى الحـــدى بحيث لايكون الاختلاف أكثر من مجرد اختلاف فى المكان . غير أن هذه الأزمة قد تفوق الاحتمال اذا كانت تقارن يوميا بنمـــاذج من الحياة على الطرف الآخر من مستوى المعيشة التى ينعم بها نفر قليل من المحظوظين .

والبديل لحالة التحضر الحدى هذه أن يظل الانسان حيث هـــو فى قريته ، وهو بديل لا يقبله الفرد على العموم ما وطئت قدماه مدينة كبرى ، ومن الاحتمالات الأخرى أن يهاجر الشخص الى مدينة اخرى ، ولكن من جربوا هذا الاحتمال تدل بصفة عامة على أنه من غير المحتمل أن تكـــون الظروف فى مدينة أخرى أفضل من سابقتها . وهناك بديل آخر بعيد المدى تجرى مناقشته من جانب المسئولين من الادارة ، ولكن لا يمكن تحقيقه الافى المستقبل البعيد ، وهو تخفيض السكان فى نفس الوقت التى تزاد فيـــه فرص العمل المتاحة . وهو امل بعيد المنال بالنسبة لأولئك الذين يعيشون فى المدن حاليا ، هذا اذا أمكن تنفيذه اصلا .

وتقدير المستقبل بالنسبة لساكن المدينة العادى فى البلاد النـــــامية أن الأمور ستسوء قبل أن تتحسن . اعنى حدوث درجة عالية من التحضر المادى — بمعنى المكان الذى يعيش فيه الناس — مصحوبة على الأرجح بدرجة منخفضة من التحضر الاجتماعى ، بمعنى توفير متع الحياة اللازمة للحيـــاة الحضرية .